مقبرة الحب

رواية

عنـــوان الكتاب: مقبــرة الحب

اســـم المـؤلف: وفـاء الغرباوي

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 29060 / 2021

الترقيـــم الدولي: 8 - 302 - 998 - 977 – 978

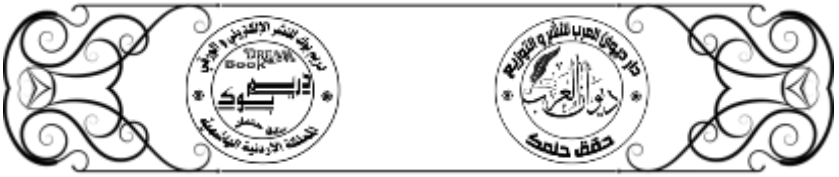

التدقيــق اللغـوي: د. هبة ماردين

تـصـميـم الغلاف: دينــا حجــازي

التنسيق الداخلي: محمد وجـيــه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الثانيـة

المديــــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع ـ مصر ـ بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

مقبرة الحب

رواية

وفاء الغرباوي

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل قارئ دعمني وقرأ حرفًا لي، ومرت كلماتي على جمال قلبه فلامسته أحرفي فنالت إعجابه.

أبي الغالي/ الأستاذ فتحي الغرباوي، المعلم الفاضل، حين أذكر اسمه تفتح جميع الأبواب لي دون عناء.

أمي الغالية، مَن كانت عونًا لي ولأطفالي على مدار رحلة حياتي حتى الآن، كم تعب والداي كي أحظى بلقب المهندسة.

زوجي الحبيب/ المهندس محمد جابر، الذي لم يبخل عليّ بأي طلب من علم أو مال، كان وما زال بجواري وآمن بي، وساندني لأحقق ما حلمت به.

ابناي/ أحمد وميرال، عيناي اللتان أرى بهما.

آمل أن يكون هذا الكتاب ذكرى جميلة لوالداتهما.

أختي إيمان، أختي نهال وزوجها المحامي/ السيد النجار، أسأل الله أن يجمعنا دائمًا كما اعتدنا.

صديقات فرقتنا الأيام ولم نفترق/ بسمة الحويط، ندى الصالحي، سمر بركات، وأخريات جمعتنا الصدفة، فكانت أفضل مما تخيلنا دينا حجازي، إيمان الصياد، نسيم الحياة، مروة عمر، فاطمة قمر، أماني عمر، مريم خليل، حنان صلاح، مريهان هراس وبناتها ريتال وروهندا، وكل من دخل الكهف وشرب من البئر.

الكاتبة: وفاء فتحي الغرباوي.

****

المقدمة

الأنثى، بذرة نقية، إذا رويتها حبًا، شملتك عطفًا وحنانًا.
اختر بذرتك بعناية لتنبت لك وردتك أجمل مما تتخيل.
وردة تكون لك في الصباح ابتسامة أمل، تُشملك بعبيرها إذا ما اقتربت منها واستنشقت رائحة أنفاسها، دون أن تلمس شفتاك خمرًا.
وحدها الأنثى هي من تضعك على عرش الدنيا ملكًا متوجًا.
إذا أحبتك أعطتك قلبًا وسعادةً لا مثيل لهما.
"وراء كل عظيم امرأة"
فهي الزوجة، والابنة، والأخت والصديقة، وقبلهن أمك.
مَن أنجبتك للدنيا فصرت شابًا يافعًا.
عليك اليوم أن تعدل بينها وبين زوجك، وأن تعطيها حقها في الحب، وتكون إمامًا عادلًا.
فقط كن رجلًا، الرجال قليلون.
وعليكِ أن تكوني أيتها المرأة مرآة لزوجك، جميل لسانك يتبعه جميل فعلك.
انظر معي أيها القارئ سنأخذ جولة ريفية في هذه السرايا الشامخة العتيقة، لم ينل القِدم منها شيئًا، وإنما زادها جمالًا وبهاءً، عوامل التعرية البيئية

تثير الفضول وتجذب الأنظار نحوها، إذا رأيتها تجدها أشبه بالمعابد الأثرية، لكن بها أزواج وزوجات غيروها تمامًا، أمًا وأبًا لهما في محراب الحياة قِبلة بالعمل والتربية، وهما إماما البيت، وقائداه.

وحولها البقاع الخضراء تسر الناظرين وتطرب الأفئدة بهجة ولطفًا، وبعضًا من أهلها الطيبين يملأ الحب قلوبهم، والتعاون دربهم.

تتمنى لو تعيش يومًا واحدًا داخلها، ترى ما هو محبب لقلبك، وتتمنى أن تعيشه وتتعلق به وترويه فيما بعد.

****

الفصل الأول

أتى الصباح بنوره وإشراق ضيائه، واستقرت الشمس في قلب السماء، وتفرقت أشعتها ترسل الدفء في الأشياء من تحتها، وأدلت بسلاسلها الذهبية خيوط الأمل على قاطني السرايا، تلك التي هُجرت منذ أعوام عديدة، ليس لبعدها عما يمكث أهل هذه البلدة الطبية، ولكن هجرها أهلها حبًا بالمدينة والحياة الفاخرة في ليالي القاهرة المكتظة بالناس.

لكن منذ عدة أشهر قليلة بُعثت فيها الحياة ليست اسمًا فقط، وإنما معنى وبشرًا إنها "حياة" زوجة "حمزة" الطبيب "حمزة" الابن الأكبر لـ"شريف رشوان" مالك السرايا، ومن قبله أبوه وأجداده.

"حياة" المهندسة الزراعية جعلت للسرايا شكلًا مختلفًا، فأصبحت جنة على الأرض بعد أن كانت صحراء جرداء، اهتمت بحديقتها، فردت بساط الخضرة على جانبيها، تتراقص أزهارها طربًا على زقزقة العصافير كل صباح، فيثمل المكان بأنفاس الرياحين والياسمين التي تملأ جنبات الحديقة، فتسمع الكروان يشدو "الملك لك يا صاحب الملك" وعصفورًا آخر يغرد أجمل الألحان، هكذا هي الحياة في الريف، متعة الهدوء.

أما الجميلة الصامتة "حور" زوجة المهندس الزراعي "حسام" الابن الثاني لشريف، مهندسة تصميم، والتي بدورها غيرت أثاث السرايا كاملًا، رسمت

لوحات فنية رائعة، ونقشت حروفًا تزين جدران السرايا فبدت كجوهرة لامعة، "هكذا هن الفتيات عندما يدخلن مكان، تصاحبه فرحة أو ربما لعنة!

هدوء "حمزة رشوان" العاقل، العاشق، الصامت، والطبيب المعالج لجراح الجميع، عدا الجرح الذي بدأ أولى قطرات دمائه مع حياته ومعشوقة شبابه "حياة"، سلبته حياته ولو لبعض الوقت.

أما عن الغاضب الثائر "حسام رشوان" وبسبب موقف حدث قديمًا، قرر أن يدخل كلية الزراعة، ونظرة لفتاة جعلته المحب بجنون للصامتة الخجول، زوجته الحنون ذات العينين العسليتين، يسعى جاهدًا لإزالة الخوف من قلبها وعينيها، زرعه قديمًا منذ أكثر من خمسة عشر عامًا وأكثر، وما زال يحصده، لكن رويدًا رويدًا.

"مقادير كتبها الله علينا وبصبرنا سنجني أكثر مما نتمنى، وبين الصبر والتعب الذي يخلفه من ندوب في قلوبنا، يكمن عطايا قيمة لمن يصبر ويحتسب.

فنون العشق مختلفة بين المحبين، لكل فارس جواد يسعى إلى ترويضه.

هيت لك يا عاشق، فأنا أول السائلين، في محراب عشقك أتمنى أن أستنشق هواءك، أتنفس اسمك، وأتغنى بحبك، أتمنى أن أسكن وجدانك، وأسري في دمائك كما تسري في دمائي.

....

داخل غرفة حمزة وحياة

"بدأت حياتي بكِ يا حياة، رفقًا بي يا نصفي الآخر"

استيقظت من نومها فابتسمت لرؤية حمزة بجوارها، كان ساكنًا، مبتسم الوجه كعادته، همست إليه بكلمات عاشقة وعتاب صامت، ليتكِ أسمعته صوتك يا فتاة، حملت حالها وتحركت بهدوء، ارتدت وشاحها وفتحت باب شرفتها تستنشق نسيم الصباح، أكسجين اسمها، حياة.

دقائق مرت عليها بهدوء وصمت، تحاسب نفسها، وتخطط لمستقبلها دون الحديث مع زوجها، أو مشاركته في أحلامها، لكنها لا تلقي بالًا كثيرًا، تهتم فقط بجعل نفسها فوق الجميع ليس غرورًا، وإنما السعي وراء القوة وتحقيق الذات، أفكار رسخت في ذاكرتها منذ الصغر، ولم تستطع التخلي عنها رغم مرور السنوات، ورغم الخذلان إلا أنها تثابر من أجل الظفر بما تحلم.

لحظات وسمعت بوق سيارة "شريف" تعلن عن وصوله اليوم، اتجهت لحمزة وأيقظته مباشرة دون إنذار، منذ قليل كانت تهديه العشق والعتاب بصمت ولكن الآن!!

رغم طريقتها الجافة بعض الشيء في إيقاظه، إلا أنه فتح عينيه وزادت بشاشته.

اقترب من رأسها ليقبلها بود، لكنها قابلته بتأفف لقدوم والدته التي تبغض حضورها، وكذلك أختها حور تبغض ذلك.

-عقد حاجبيه بغضب مستتر ولم يعلق كثيرًا، وإنما قال لها بود حقيقي: صباح الحياة لأحلى حياة.

-ردت بجمود كعادتها: صباح الخير يا حمزة، ومن دون مقدمات: يلا ننزل عشان مامتك متقلش حاجة زي كل مرة وتبدأ بالإهانة ليا ولأختي وأننا أقل منها.

ووقفت عاقدة ذراعيها وأردفت بصوت صاخب: وأنت مش بترد عليها ولا بتدافع عننا، أو على الأقل عني أنا، "حور" "حسام" بيرد عنها.

-اعتدل حمزة بجلسته وأراح ظهره إلى قائم الفراش متنهدًا: ومش هرد لأنها أمي يا حياة، زي أما أنتِ لما بتقولي حاجة مش بتعجبني مش برد.

وأدار وجهه للناحية الأخرى فزادت حدتها أكثر، وحملقت إليه في ذهول وسألت بغضب: امتى قلت حاجة مش عاجباك؟

قرر حمزة إنهاء الحوار قبل أن يطول دون فائدة، فقال بثبات: حبيبتي، صباحك زي الورد، أنتِ بتصحيني من النوم، يعني أقل حاجة ابتسامة على وشك الجميل ده، مش كلام يقفل النفس واحنا لسه على الصبح، وأسطوانة كل مرة بابا وماما يجوا، مبتزهقيش يا بنتي!

-حياة: أنا بقول كلام يقفل النفس يا حمزة! أيوه ما هي مامتك خلاص جت.

-حمزة بنفاد صبر وابتسامة باهتة جاهد كي يظهر أنها من قلبه: أيوة هي جت فعلًا، أنتِ متفرقيش عنها كتير.

وتركها ذاهبًا إلى المرحاض بعد أن ألقى إليها ابتسامة ساخرة، ورمقها بنظرات باردة.

وقفت تعقد أصابعها وتضع يدها على مقدمة رأسها، وتمررها على خصلات شعرها وكأنها تتهيأ استعدادًا لمواجهة والدة زوجها، ثم أخذت زفيرًا حادًا كأنها عازمة على قرع طبول حرب أجلتها منذ سنوات.

....

في غرفة حسام وحور

استيقظ "حسام" وما زالت معشوقته تغط في سبات عميق، اقترب منها في هدوء ثم طبع قبلة حانية على جبينها، وطفق يداعب وجهها بوردة بيضاء احتفظ بها من الأمس، فهو يعرف مدى عشقها لهذا اللون ومثل هذه الوردة خصيصاً.

-ارتسمت ابتسامة جذابة فوق شفتيها فبدا جمالها كأنه يشاطر القمر، وما زالت مغمضة عينيها وغمغمت: صباح الورد يا حبيبي.

-أمسك براحة كفها وقبلها في هدوء كعادته كل صباح وكل مساء: ده صباحك أحلى حاجة بتحلي يومي، عارفة أحلى حاجة فيكِ إيه؟

-اعتدلت من رقدتها قليلًا، ونظرت له باستفهام علها تعرف الإجابة، ولكنه فاجأها بالقرب منها هامساً في أذنها برقة: أن اسمك حور، يعني الحور العين، يعني أنا عايش في الجنة من دلوقتي، أنتِ دنيتي وجنتي يا حور.

-ذابت لعذب حديثه وغرامه، ونظرت له بعينين ناعستين وكادت أن يغشى عليها من مشاعره تجاهها.

فربت على كتفها بحنان ونهض واقفًا من أمامها ووصل إلى باب الغرفة واستطرد قائلًا: يالا فوقي بسرعة، ماما وبابا رجعوا وحبيبتي عشان خاطري مهما ماما تتكلم متحطيش في دماغك، المهم أني معاكِ.

-أخذت نفساً عميقاً حاولت من خلاله أن تملك نفسها قدر الإمكان، فمثل هذه السيرة كافية بأن تشعرها بالتذمر، لكنها أخفت ذلك لأجل زوجها، لأجل الحبّ الذي يملأ قلبها، "كم من قانون تغير بسبب الحبّ، فهو القاضي ولا آمرَ ولا ناهيَ سواه "فأردفت بحب: حبيبي أنا مش بزعل منها، وكفاية أنت معايا، بس حياة أنت عارف يعني.

-حسام بصوت مليء بالدفء والحنان: حساسية حياة من ناحية الفرق الاجتماعي مخليها كده، متشغليش بالك أنا هتصرف، المهم ملاكي وجنتي ميزعلش خالص.

تحركت من مكانها، ووقف حسام يفكر بها وكم مر من الوقت دون الاقتراب منها أكثر من ذلك، عليه التحكم بنفسه بقربها حتى لا يخسرها.

....

دخلت السيدة "ريهام" السرايا بخيلاء وغرور لا حد لهما، تتبختر بمشيتها، ومساحيق أدوات التجميل تزين وجهها وكأنها تتحدى بها الزمن والعمر، بدت بملابسها الفاخرة، وحقيبتها السوداء من أرقى أنواع الجلد الطبيعي،

وحذائها الراقي، والحلي التي تملأ كفيها ورقبتها، إنها أصغر سنًا من سنها، تنظر في أرجاء السرايا تتفحص كل شبر بها في غرور وضجر كسيدات الطبقة العليا، تعلن للجميع أنها مازالت سيدة السرايا الأولى.

-أوقفها شريف قائلًا بامتعاضٍ: ريهام لو سمحتِ عدي النهاردة على خير، ولادك مبسوطين مش هنتكلم كتير، مش عاوزين نقرفهم، سيبك من الأسطوانة بتاع كل مرة دي إجازة بسيطة ونمشي على طول.

-أجابت ريهام بمكرٍ أنثويّ: أنا مبقلش حاجة، هما عارفين قيمة نفسهم كويس، وهما بياخدوا الكلام على نفسهم ليه؟

-هما بقوا زوجات لأولادي، يعني تنسي هما كانوا إيه ولا جاين منين! يا ريت تغيري نظرتك دي بقى.

-نظرت بعينين جامدتين: لا سيبني أنا عارفة الأشكال دي كويس، لهم طريقة في التعامل أنا اللي أفهمها، لو عاملتهم بمعاملتك دي هينسوا نفسهم.

-عقد حاجبيه بضيق وباح بما بداخله: وأنتِ نسيتِ يا ريهام هانم أنتِ جاية منين! ولا أهلك مين!

-نظرت له بضيق وتنهدت بحنق: أنت بتعايرني يا شريف!!

-أجابها ببرود: مش موضوعنا، أنا بس بفكرك إن كلنا عيوب.

-على الرغم من أنها كلمات لا تفصح عن شيء، إلا أنها أثرت في ريهام كثيرًا وتركت في قلبها غصة لا تهدأ، لكن سرعان ما تمالكت نفسها، وجاهدت

كي تخمد بركان الغضب الذي ثار بداخلها، وتظاهرت بالقوة وعادت إلى طبيعتها.

وعن كثب وعلى درجات السلم الدائري الذي يتوسط ردهة السرايا، والمزين بأعمدة الشمعدان الرقيقة، كانت حياة تقف بصحبة حمزة، وترامى إلى أذنها بعض كلمات تغمغم بها ريهام، غلى الدم بعروقها وانتفخ وجهها من الغضب. لاحظ حمزة تغيرها وما تخفيه في نفسها من ضيق، رفع يده فوق كتفها ليبث الهدوء بقلبها، مع قليل من الأمان، فما كان منها إلا أن أزاحت يده بعنف ولم تلقِ له بالًا، واندفعت بكل سرعتها وغضبها الذي أوشك أن يفقدها صوابها للهبوط على درجات السلم وتحدثت حياة بغضب مكتوم: طبعًا يا حماتي عارفين كلامك كويس، حفظناه من تكراره، مش ولاد أصول ولا إيه! وحضرتك طالما شرفتِ السرايا لازم نيجي نرحب بكِ كويس، أصل حضرتك يا دوب بتقعدي يومين وتمشي.

-اعترت الصدمة ريهام، وبدا جحوظ عينيها كجمرتين ملتهبتين، وقالت بضجر: حماتك! وحدقت بعينيها في ذهول ودهشة نحو زوجها: ريهام هانم بقت اسمها حماتك يا شريف!

-ابتسم شريف لا إراديًا فزاد غضبها، وصرخت بحياة: اسمها طنط يا ماما.

-أدركت حياة حينها أنها بدأت بكسب الجولة الأولى فقالت ببرود: مش ماما حمزة تبقى حماتي، ولا هي ليها معنى تاني يا عمو؟! ونظرت بقوة نحو شريف ثم عادت ببصرها نحو ريهام.

-لم يتحدث شريف، ولم تجد ريهام ما تعبر به عن غضبها فتابعت حياة بهدوء: أقول لك يا طنط ازاي! حضرتك يا أم حمزة في الشرقية وهنا في الريف بنقول حماتي أو أمي، أو ماما، وساعات كمان خالتي معندناش طنط دي خالص.

-ريهام وهي تغلي من أعماق قلبها وتشير إليها من الأعلى إلى الأسفل باحتقار: أنتِ عايزة تقولي لي ماما! استحالة أوافق وأنتِ بالذات لا.

قالت هذا وهي تحاول التماسك قدر الإمكان، وصمت شريف وحمزة يزيد من غضبها.

-ردت حياة بدهاء وابتسامة خبث: لا أنا عندي ماما واحدة بس ربنا يخليها ليا، إنما حضرتك حماتي وأم حمزة وبس.

-هنا نطق حمزة محاولًا تهدئة الموقف وسلم على والدته بابتسامته المعهودة وقبل جبينها: حمدًا لله على سلامتك يا ماما، واتجه نحو أبيه في أدب جم: حضرتك وحشتنا أوي يا بابا.

-نظرت ريهام تجاه حياة بغلٍ وبغض بعد أن بسطت ذراعيها لاحتضان ابنها: هو بابا بس اللي وحشك يا حمزة؟! ولا العروسة نستك مامتك.

-أسرع حمزة نحو والدته وضمها بين ذراعيه وهو يقبل يديها: طبعًا يا ست الكل أنتِ وحشتيني جدًا، لكنه لا يشعر بحنين في ذلك الحضن الصلد اليابس، لطالما كان وجود أمه يعقبه مشكلات عديدة، ويحدث في النفوس

شحناء، لكنه لم يُبدِ ذلك وإنما قال بابتسامة باهتة: ماما حبيبتي ربنا يخليكِ لي، استحالة حد في الدنيا ينسى مامته.

-هنا نطق شريف وقال بوجهٍ بشوشٍ: ازيك يا حياة، عاملة إيه يا بنتي؟

-اتجهت حياة نحوه وسلمت عليه باحترام وود ظاهرين: بخير الحمد لله، نورت بيتك يا عمو.

-صاحت ريهام بصوتٍ عالٍ لجذب انتباههم، كعادتها تريد التقاط الأضواء وحدها وألا يكون لأحد كلمة ولا رأي سواها: أخوك فين يا حمزة ومراته؟

-أجاب حسام بصوت عالٍ وهو يهبط دركات السلم بحماس مزعوم، ويشد على يد حور وهي تسير بجواره بخطوات متثاقلة كمن يقدم على حافة بئر: هنا يا ماما في انتظارك يا حبيبتي، وهبطا الدرك وسلم على والديه واحتضنهما بحرارة، كل هذا وحور ما زالت مختبئة بكتفه وتنظر إلى الأرض بخجل، حتى مدت يدها ريهام وقالت بابتسامة غير معهودة منها لحور: هو أنتِ مش هتسلمي عليَّ ولا إيه؟

-ارتجفت حور داخليًا، وبدأت تتعرق إلا أن يد حسام كانت دافعًا لها يربت على ظهرها وأمسك بيدها حتى وصلت لوالدته، ومدت يدها على استحياء.

الغريب أن ريهام استقبلتها داخل أحضانها بحفاوة غير معتادة للجميع، فظهرت تعابير الغضب والغرابة على وجه حياة، واستنكرت ما يحدث، وظنت أن ريهام تدبر شيئًا ما.

علت الابتسامة وجوه الجميع خاصة حسام، الذي لاحظ تغير والدته فاقترب منها وضمها بين ذراعيه هي وحور.

-نظرت حياة نحو حمزة واستشاط غضبها عندما رأت الابتسامة على وجهه، لم تستطع كتمان ضيقها فصرخت باسمه في حدة، فزع الجميع لها والتفتوا نحوها، لكن ليس لديها ما تقوله إنما حاولت تحرير غضبها، وقالت باستياء: حمزة أنا هخرج شوية

-عقد حمزة حاجبيه بدهشة: تخرجي! على فين يا حياة؟

-قالت بلا اكتراث: عند بابا أطمن عليه وعلى ماما وهاجي.

-وقف حمزة إلى جوارها وبصوت منخفض همس لها: خليكِ بعد الغداء ونروح كلنا، مينفعش تسيبي البيت ولسه بابا وماما واصلين.

-حياة بعند ونبرة تحدٍ: لا دلوقتي هروح لهم.

-كان هذا الخلاف بمثابة فرصة أتت على طبق من ذهب لريهام، فقالت بخبث: اسمعي كلام حياة، ولا أنتِ مش عايزة تقعدي معانا! ولا أقول لك، ابقي تعالي بكرة عشان شكلهم وحشوكِ أوي، واهو نكون احنا مشينا.

-صاحت حياة بصوت غاضب: طنط ريهام، لو سمحت أنا بكلم حمزة، يا ريت ملكيش دعوة بحياتنا ومتدخليش أنا باخد الإذن من زوجي.

-تنهد حمزة بغضب من كثرة الجدال المرهق: عيب يا حياة، ميصحش تعلي صوتك على ماما كدا.

-كان الغضب قد تملك حياة فلم تدرِ بما تتفوه به فقالت بسخرية: ابن ماما هيقول إيه غير كده؟

-كانت كلماتها صدمة للجميع، فلم يتفوه أحد بكلمة وسط دهشتهم، ونظراتهم القاتلة لها، ولأول مرة منذ زواجهما يكشر عن أنيابه وجذبها من ذراعها بعنف ودفعها أمامه إلى غرفتهما.

ولو أن الموقف كان يحتاج صفعها وتأديبها من وجهة نظر الجميع حتى أختها.

نعم أخطأت ولكن حمزة لا يعالج الخطأ بمثله، ولن يصفعها أو يتحدث في حضور والديه، هكذا تكون التربية، وهؤلاء هم الرجال.

****

الفصل الثاني

دخل حمزة الغرفة وأغلق الباب خلفه بعنف، ثم ألقى بها فوق الفراش وأخذ يمرر يديه فوق بعضهما ويفركهما بغضب محاولًا تهدئة نفسه وامتصاص غضبه حتى لا يصدر منه ما لا يحمد عقباه.

-وقفت عنوة تهتف بحدة وكأنّ مسًا شيطانيًّا يدفعها نحو الخطأ فلم تعد تدري ولا تفطن ما تقول، وتناثرت منها الكلمات بغير ضابط: أنت زعلان من الحقيقة ليه يا حمزة؟ طول عمرك مبتحبش تزعل مامتك، بتسمع وتسكت، هدوءك بيجنني، أنت ليه كده بارد ولا بتهتم بيَّ ولا بتقدرني! أنا بالنسبة لك ولا حاجة، هتفضل طول عمرك ضعيف، أنا مراتك يعني كرامتي اللي تحت رجل أمك دي من كرامتك، خد موقف بقى وخد حق مراتك، خليني أشوفك مرة واحدة قوي وأحس إني متجوزة رجل.

-وكانت هذه بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، خطأ يتبعه خطأ بحقه للمرة الثالثة، وحديث آخر زاد الموقف سوءًا، وقرّب البنزين من النار أكثر من ذي قبل.

وقف ينظر إليها غير مصدق لما سمعته أذناه من حديثها الشبيه بالرصاص الذي أطلق عليه بلا اكتراث، أو كنصل سكين حاد غرز بصدره، تسارعت دقات قلبه وازدرد مرارة كلماتها غصة بحلقه، دار بعينه الغرفة كاملة

وجدها تضيق عليه، زفر عاليًا كأنما أنفاسه حمم بركانية ثارت بعد سنوات من الخمود، ولأول مرة يعلو صوته عليها وهي تتحدث قائلًا: كفاية يا حياة، كفاية بقى واحذري نفاد صبري.

-انتفضت فزعة من صوته العالي والتي ارتجت له جدران الغرفة دون مبالغة، تراجعت بخطوات إلى الخلف، صَمت فمها عن الحديث، رأت في عينيه غضب يكفي ليهدم السرايا رأسًا على عقب!

طال لقاءهما الصامت دون حديث، عينا حمزة تشبهان جمرتان من النار، إذا اقتربَ منهما شيءٌ تحول فحمًا، حتى وجدته يفتح باب الغرفة ويرحل بعد أن أغلق الباب بقوة اهتز قلبها على إثرها.

تحركت سريعًا للوصول إليه ونادت باسمه، استدار نحوها بنظراته المريبة، وغضبه الذي اجتاح جسده، فتحت فمها محاولة التحدث إلا أن نظراته أسكتتها، فرأت أنه من الحكمة أن تلتزم الصمت فابتلعت باقي حديثها بخوف.

خرج من بوابة السرايا الخارجية ثم صفعها خلفه بقوة رجُت جدرانها الأخرى، ولم يكترث لنداء والده، سار في طريقه دون هُدى، سمع صهيل جواده ابتسم بمرارة وذهب نحوه، حرك يده فوق ناصية "مرجان" قائلًا: كده يا مرجان؟ مقلتش إن دي آخرة الحب؛ بحبها ومش هقدر أزعل منها، هي بتعمل فيّ كده ليه؟

ده أنا عشت عمري كله بحلم بيها وإننا نكون سوا، أنا بشوفها بنتي مش مراتي، من أول مرة شفتها عند الأرض وهي بتزعق شفتها بتكملني، دي البنت اللي نفسي تكون جنبي، مخافش عليها وأموت من القلق عليها لو بعدت عني، في كل مرة بتبقى عصبية بسمعها بهدوء، وامتص غضبها، في الآخر أبقى بارد، هي ناسية إن قلبي طيب وإني دكتور أهم صفة فيا الهدوء! بين إيديا أرواح ناس، اتعودت أطبطب وأديهم أمل! صح يا مرجان ولا إيه!

فجأة تذكر حديثها فقبض على مقدمة جواده بعنف كأنما يخرج غضبه به حتى صهل وحمحم بشدة، انتبه إليه فرتب على رأسه، دار بوجهه نحو السرايا، وجدها تقف في الشرفة أشاح بصره عنها قائلًا: بس المرة دي لازم تفهم أنها غلطت، وتعرف أن سكوتي مش ضعف، ده حب وعشق ليها مش هتحس بهم مع حد غيري، احتواء ليها ولغضبها واعتذار عن اللي أمي بتعمله.

امتطى جواده وأمسك بلجامه وتحرك خارجًا من الإسطبل نحو بوابة السرايا يسابق الريح لا يعلم كيف يخرج غضبه الذي يزوره لأول مرة وتملك منه حتى خنق أضلعه، طال الطريق به حتى وصل إلى مكان يعشقه وخالدًا بقلبه وعقله، مكان أخضر معشوشب، به الشجرة المفضلة لديه الذي يزورها كلما ضاق صدره، مدون عليها اسمها الذي حفره في جذعها منذ أعوام.

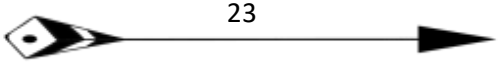

نزل من فوق ظهر جواده وربطه جيدًا، وبدأ يتحسس براحة يده اسمها مغمضًا عينيه ويستجمع ذاكرته، متذكرًا بداية عشقه لها، وغمغم بكلمات مبهمة: حياة، حياة، اسمك حياة ولا حياة لي من دونك.

لاح إلى ذاكرته الماضي البعيد لأول مرة رأى حياة، تذكر الوقت وكأنه يمر أمام عينيه عبر شريط سينمائي جميل، نحو أكثر من خمسة عشر عامًا مضت.

....

خرج الإخوة الثلاثة من السرايا بصحبة العم "حسن" حارس الأمن المكلف برعايتهم أثناء الخروج والتجول حول السرايا.

يجري "حسام" بمرح وحرية طفل لا يحمل للحياة همًا بعد، فاتحًا ذراعيه لاستقبال الهواء، تتبعه "ريم" الصغيرة وتقلده في بهجة.

ومن خلفهما يسير حمزة بهدوء يتطلع إلى المنظر الخلاب من حوله، يتطلع إلى السماء الصافية، ويطوف بعينيه الأرض الخضراء.

-العم حسن: يا حمزة يا بني أخوك حسام بيحب يجي هنا كأنه مولود هنا.

-حمزة بنظرة هادئة: مين ميحبش هنا ياعم حسن؟! كفاية طيبة الناس وابتسامتهم، وتعاونهم وحبهم لبعض، كفاية الهوا النقي ده اللي زي قلوبهم، وحاجات كتير هنا أفضل من صخب المدينة.

-ظلوا يسيرون ويشغلهم الحديث بين ماضٍ وحاضر عن الأرض والسرايا، ويسبقهم حسام وريم.

شرد حسام عن ريم بالنظر إلى الأرض المزروعة من حوله، رسم بعقله المستقبل وكيف يصير عندما يكبر!

تجولت ريم بحرية حتى رأت فتاة صغيرة في عمرها تقريبًا تلعب مع ماعز صغيرة، شردت في السير نحوها، لم يلمحها حسام وحمزة لتأخرهما بعض خطوات، إلا أن سمع حسام صراخ أخته.

التفت يجرى نحوها، لحقه حمزة مهرولًا إليها، شاهدوا ريم تجري خوفًا والماعز تجري خلفها، وحور تقف ولا تحرك ساكنًا.

سرعان ما أتى "ريان" (بن عم حور، طفل في الثانية عشرة من عمره، جاء على صوت الصراخ العالي، هرول إلى الصغيرة أولًا عندما وجد الماعز تجري خلفها وتهم بنطحها.

-أمسك بالماعز ونظر لها بحنان قائلًا: اهدي متخافيش وأشار بيده كي تهدأ.

وصل حسام وحمزة معًا، ضمها حمزة برفق لكن حسام توجه إلى حور صارخًا: أنتِ يا بني آدمة أزاي متحاوليش تساعديها؟ واقفة وخلاص كده تتفرجي على إيه؟

-نظرت له حور بدموع تسير فوق وجنتيها متتابعة وجسد يهتز خوفًا، ليكمل صارخًا متقدمًا نحوها: لما صرخت أنتِ سيبتِ البتاعة دي تجري وراها.

اضطربت حور من صوته وصراخه فلم تنطق بحرف سوى دموعها وآهاتها، فصاح ريان: خلاص متزعقش كده، هي مكنتش تقصد، وبعدين أختك كويسة محصلهاش حاجة.

ومن الجهة الأخرى للأرض كانت تقف حياة بجوار والدها، شاهدت التجمع حول أختها، تركت والدها وهرولت إليها سريعًا دون إخبار والده عما يحدث. سمعت صراخ حسام ورد ريان عليه، وصلت ووقفت أمامهم تنظر لهم وكأنها تتفحصهم.

رفعت يديها حول ذراع أختها تحتضنها وهمست لها: متزعليش يا حبيبتي ومتخافيش كده، ورفعت نظرها إليهم بتحدٍ: محدش يقدر يعملك حاجة.

-نظرت لها حور وابتسمت بدموع لتكمل حياة: احنا في أرضنا ملكنا، هما اللي هيمشوا.

-حسام بتحدٍ ونبرة حادة: أرض مين وملك مين! اتكلمي على قدك يا شاطرة.

-هنا تدخل العم حسن: خلاص بقى يا أولاد، كل واحد يروح لحاله، يلا يا حمزة ويلا يا حسام.

لكن حمزة كان بوادٍ آخر ينظر إلى الخائفة الشاردة تارة، وإلى القوية الثائرة الغاضبة لأجل حق أختها تارة أخرى.

أما حسام كانت نظراته غاضبة، ونظرات حياة كأنها سهام قاتلة لكونه ينظر لحور بعضب.

لا تعلم كم مر الوقت بين نظرات الجميع التي تحمل عبارات صامتة، ثم رحلوا جميعًا، لكن كان هناك قلوب معلقة سكنتها ملامح لم تستطع نسيانها ولو مر دهرٌ كاملٌ، وتحدٍ بامتلاك الأرض.

أخبرهم العم حسن أن هذه القطعة كانت إهداء من جدهما إلى جد حياة وحور وريان لحبه الشديد له، وأن حور لديها مشكلة بالنطق وتتناول العلاج لصغر سنها إلى أن تكبر وتخضع لإجراء عملية جراحية.

زفر حسام غاضبًا وقرر أن تكون حياته جزءًا من هذه الأرض، وكسر غرور تلك الفتاة، لذلك قرر دخول كلية الزراعة.

البعض يبحث دومًا عمن ينقصه، فالنار تطفئها الماء، لذلك قوانين الطبيعة هي ما تتحدث وكذلك الأشخاص.

....

ظلت على حالها بين غضب وندم تنظر إلى الباب، دقائق قليلة مرت عليها وقلبها يئن وجعًا وألمًا لما حدث، لكن صفعة باب السرايا أخرجتها من شرودها ونبهتها أنه خرج، تحركت إلى شرفتها تراقبه بنظرات مختلسة، تكابر لكن للمحبين قلوب لينة لا تستطيع إخفاء ما تشعر به، وجدته يتجه إلى الخلف، علمت أنه سيرافق مرجان.

دخلت وأغلقت الباب وجدت نفسها تنظر إلى المرآة، استكانت قليلًا حتى رأت علامات الغضب ما زالت على وجهها، تنهدت وأخرجت زفيرًا عاليًا تلوم نفسها.

همت أن تتحرك وتخطو استعدادًا للخروج، لكنْ قدماها ما زالتا ثابتتين، وكأنهما التصقتا بالأرض. بدأت ترسم ملامح وجهها وتمتمت: إيه يا حياة ده! أنتِ مين؟! ليه وشك بقى باهت كده؟ فين جمالك؟ للدرجة دي الشغل خدك! يعني هو هيبقى معاه حق إني مش مهتمة به وكل وقتي للأرض بس! وأنا اللي وقفت أزعق وألوم فيه إنه مش بيقدرني ولا بيهتم بيَّ.

طيب هو أنا كنت مهتمة بنفسي! أو عملت له إيه عشان أطلب المقابل.

ظلت تتحدث بالكثير مع نفسها وتذكرتْ ما تفوهت به، علمت أنها أغضبته بشدة وأفقدته صوابه حينما قالت له: أنت بارد، وأنت ابن أمك.

تذكرت نظرته حينها فأكملت: هدوءك بيعصبني، كلامك قليل معايا، حتى في مشاعرك بحس إنك بخيل فيها، مش أنت حمزة اللي كنت بحلم يكون معايا، بيواكب جناني، أنت طيب منكرش، لكن بتهتم بمظهرك رغم إن إظهار حبك لي ميقللش منك بالعكس.

شايف حسام بيعمل إيه مع حور؟ مخليها ملكة، مش بيتكسف يقول إنه بيحبها قدامنا، لكن أنت بتبتسم وخلاص وأنا نار الحب والغيرة بتكويني، هو أنا مش حلوة ولا مش بتحبني؟؛ ولا بتعاقبني على اللي حصل زمان! ولا إيه الحكاية!

مامتك ضعيف الشخصية قدامها، مش بتحاول تتكلم ولا ترد عني وهي بتقلل مني من غير ذنب، وأنا بسكت علشان خاطرك، لكن كل إنسان له طاقة.

وازداد صوتها ارتفاعًا وهي تقول: قل لي أنت اتجوزتني ليه، ومتقلش حب عشان أصدقك.

مجرد أن تذكرت هذا الحوار حتى وضعت يديها فوق وجهها وضغطته بشدة، وتذكرت نظرته حينها.

هل أحبته هي؟

ولو فعلت، ماذا أعدت لهذا الحب؟ هل هيأت له التربة الخصبة كي ينمو؟ هل روته بمشاعرها العذبة! أم تركته حتى ذبل ويبس؟

لكن قد فات الأوان، لقد أشعلت نارًا لا تعلم كيف تطفئها.

ظلت توبخ نفسها بشدة، وتلعن غضبها، ولكن سبق السيف العزل.

....

قبض حسام على يد حور فتحركت معه إلى غرفتهما، جلست صامتة، حزينة لما بدر من أختها، بينما كان حسام يتحدث بسخط عن حياة وكلامها عن حمزة. تذكر حسام حدتها وجبروتها في إهانة الجميع بعد عودته من الخارج، ولكنها كانت على حق، لكن اليوم ليست على حق تمامًا، بدأ بسرد الموقف كاملًا لحور وكأنه يمر أمام عينيه.

في كلية الزراعة يقف مجموعة من طلاب الفرقة الرابعة يتحدثون بصوت عالٍ.

-حياة بغضب: مالهم الفلاحين! وبسخرية تابعت، لولا الفلاح مكنش البيه عاش قل لي بقى يا أخ كنت تاكل أزاي؟ مش الأرض اللي بيزرعها الفلاح

هي اللي بتاكل منها! ولما هو الفلاح مش عجبك دخلت كليه الزراعة ليه! كنت خليك في كليه تجارة ولا كنت روح شركة بابي أنت مش محتاج شهادة.

-نظر "فارس" حوله وجد العديد من الطلاب ينظرون إلى حياة بابتسامة رضا وكأنهم يصفقون لها على حسن ردها.

-"فارس" بغيظ من ردها: مش يمكن صادفني الحظ عشان أشوف طلعتك البهية ولسانك المبرد!

-حياة: تشكر على الحقيقة دي، والله مش عارفة أودي جمايلك فين؟

-"ميار" وهي تقبض على يد حياة: خلاص بقى الكلية كلها وقفت تتفرج علينا، حصل خير يا جماعة، يلا بنا.

-دخل "زياد" في الحديث قائلًا وهو يتنهد: يالا يا فارس دي غسلتك ونشرتك قدام الكلية كلها، ملقتش غير دي اللي تكلمها!

-نظرت حياة نحو "زياد" بغضب: مالها دي؟ أربع سنين أهو عمري ما زعلت حد، بس محبش اللي يعاملني بأسلوب مش كويس ولا يقلل مني، ولا هو عشان أنا جد وفي حالي مبحبش الغلط!

-زياد بخجل: آسف يا آنسة حياة مقصدش، كنت بقول له إنك ملكيش في الكلام الفاضي.

-فارس باستنكار: ووصلة الردح دي ليه؟ لما أنتِ محترمة ومبتحبيش الغلط!

-حياة بعناد: عشان الأشكال اللي زيك ملهاش غير كده.

-استشاط غضبًا ورفع يده عاليًا ليصفعها، وعلى حين غرة وجد يدًا تقبض يده كأساور من حديد أمسكت بيده ورفعتها لأعلى.

-نظر في غرابة ليجد شابًا ليس وسيمًا لكنه طويل وجذاب، ملامحه مقبولة، ولحيته كثة، يمتلك عينين كعينيّ الصقر، حاد الملامح، صارم.

ضغط على يد فارس بشدة ليتأوه الأخير من الألم، لقد كان حسام هو الذي أمسك بيد فارس بعنف، وصاح بغضب: لحد هنا وكفاية، غلطت في حقها وأهنتها وقللت منها ومن نفسك الأول، توصل أنك تمد إيدك عليها مش هيحصلك كويس فين أمن الكلية؟

-نظرت حياة نحوه بابتسامة تناسب قوتها ولم تتعرف عليه، حتى دخل المدرج ووقف على المنصة لإلقاء المحاضرة وتعريف نفسه وبنظرة إلى عيني حياة قائلًا: دكتور حسام شريف رشوان.

-تبدلت قسمات وجهها تمامًا، وتحولت الابتسامة إلى جمود وذهول، ليبتسم حسام محاولًا استفزازها، ولكنها حياة! تلك التي نشأت في الأرض والطين، أخذت من صلابتها وليونتها معًا، وأصالة أهلها وعراقة نسلهم، وتربيتهم فليس بالسهل استمالة قلبها.

انتهى اليوم العصيب وخرج حسام ليجد حمزة مستقلًا سيارته بانتظاره أمام الجامعة.

هبط من السيارة ووقف إلى جانب أخيه، كانت تخرج بنفس الوقت أيضًا حياة وصديقتها، نظر حسام لها بشبه ابتسامة قابلتها حياة بنظرة غاضبة حتى قال حمزة: مالها دي عينيها بتطلع نار.

-حسام بشرود: حور محمد محمود.

-حمزة بعدم تصديق: هي دي حور بجد يا حسام؟ هي معقولة! اتكلم عرفتها أزاي؟ -انتبه حسام من شروده: لا دي حياة أختها، كان نفسي أسألها عن حور.

-حمزة بابتسامة أذابت قلبه وجعلت دقاته نافرة: أخيرًا شفتك يا حياة.

-راودت كلًا منهما الأحلام بين ماضٍ مرَ وحاضر يعيشانه، ومستقبل بعلم الغيب هل يشفق على قلبيهما ويرحمهما؟

عاد حسام إلى الحاضر وما زال على وضعه، يجلس ويتحدث بغضب ولوم على حياة وما فعلته، نظر إلى حور: مش عارف أنتوا أزاي أخوات؟ ليه بتعمل كده؟ حمزة بيحبها طول عمره وبيتمنى بس إنها ترضى عنه، أخويا مش ضعيف يا حور، أخويا أقوى منى بعقله، وحنيته.

أنا من غيرك معرفش أعيش، أنا بستمد قوتي منه.

-حور وهي تربت على كتفه بحنان يناسب حبها وهدوءها: حسام أنا عارفة كل حاجة، حياة غلطانة جدًا أنا متفقة معاك، بس لازم نسمعها.

-حسام وما زال يقبض كفيه بشدة وعاقدًا جبهته بغضب ظاهر: أختك أهانت أخويا قدام أهله، مطلوب مننا إيه؟

-حور بتنهيدة يأس: هي اللي مطلوب منها مش أنتوا، ممكن أروح أتكلم معاها؟

-لا يا حور، الأفضل يحلوا مشاكلهم سوا.

-دقائق قليلة وأعلن باب السرايا عن خروج أحدهم، هرول حسام إلى الشرفة، وجد حمزة يخرج منه البوابة.

قبض على يده بشدة وقرر اللحاق به، عله يقتحم بعض من ذكريات، الماضي وينبش به ليخرج الحاضر للنور من أجل المستقبل.

****

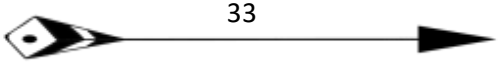

الفصل الثالث

دخل شريف الغرفة تاركًا بابها مفتوحًا حتى لحقت به ريهام وأغلقته خلفها، استدار شريف لها وأمسك كتفيها يهزهما بعنف وصاح من فرط جزعه: آخر مرة هتيجي هنا، اعملي حسابك.

-ريهام بعد أن أزاحت يده بهدوء مصطنع ربما فرح داخلي أو حزن خفي: لا هاجي ده بيتي ودي سرايتي، أنا أحق بيها وبولادي.

-شريف صارخًا بحدة: مش بيتك أبدًا، عمرك ما كنتِ بتحبي تيجي هنا، إيه الجديد؟ ولسه فاكرة إنهم ولادك! واشمعنا حياة مش بتحبيها ونفسك تهدمي حياة ابنك!

-ريهام بصراخ أشد من ذي قبل: افهموا، مش أنا اللي بهدم، دي مراته هي شايفة نفسها وعايزة تكون أقوى منه وأعلى منه، فارق معاها إنها بنت الفلاح وهو ابن البيه، حاسة بالنقص وإنه أعلى منها، دي مشكلتها هي، افهموا كده.

صحيح أنا مكنتش عايزاها ولا كنت عاوزه الجوازة دي بس خلاص بقى أمر واقع.

ليه تقول على حمزة ابن أمه، حمزة أول فرحتي وزهرتي، وطيبته وحب ليها مخليها فاردة نفسها عليه، هي ليه مش شايفة نفسها وعارفة قيمتها.

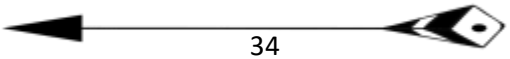

-شريف ضاحكًا بسخرية شديدة: وأنتِ بقى هتكسريها ويا سلام حمزة أول فرحتك! مكنتش عارف يا هانم، ده أنتِ عمرك ما اديته ريق حلو، أو حتى حسستيه إنك بتحبيه.

-ريهام: هي اللي هتنكسر لوحدها لما جت على ابني، وفكرّته ضعيف بس هو هيعلمها إن قوته في سكوته وبس وبكرة تشوف، ابني وأنا عارفاه.

-شريف: أنا نفسي ولادي يبقوا مبسوطين، أنتِ كنت سبب تعبهم الأول، طول عمرك وأنتِ سبب مشاكلهم وعقدهم النفسية، حمزة علشان طيب ده خَلاكِ تقولي عنه ضعيف وصوت حسام العالي وعصبيته قلتِ عليه متعجرف وقاسي.

حتى البنت بتحس إنك مش أمها! الحياة كانت معاكِ غلط من الأول وأنتِ السبب.

وشهر سبابته في وجهها بحدة وتابع في ضيق: اللي جوايا كتير من ناحيتك، وكنت ساكت عنه بس خلاص أنا مش عايز حاجة غير فرحة ولادي، وكفاية عليهم اللي شافوه زمان.

اجتاحت الريبة جسد ريهام لأنها شعرت بأن زوجها بات على وشك أن يبغضها فقالت بنبرات عتاب ممزوج بالكسرة بصوتها: هيحصل إن شاء الله، بس لازم وقت عشان كل الجروح القديمة تقفل، والأمور ترجع لوضعها الطبيعي، وسرحت بخيالها إلى الوراء ورددت كلمة قيلت لها قبل

يومين في لقاء عابر "على الله تكوني مبسوطة لما بقيتِ ريهام هانم وحققتِ اللي نفسك فيه، أنا بحمد ربنا على نعمة أسرتي اللي مش هتتعوض"

"بالطبع هناك نعم لا تحصى ولا تقتصر على المال فحسب، الأهل نعمة، وشريك حياة حنون عاقل نعمة، والأبناء نعمة، والصحة رأس هذه النعم"

أما أسرتها فأشبه ببيت العنكبوت، في وهنه وتفككه، فالأنثى تقتل الذكر أو تلقي به خارج البيت، والأبناء يلقون بأمهم خارج العش بعد أن يكبروا، الغدر، التفكك والضعف في أبهى صوره.

الأنثى ما هي إلا ضلع من الرجل، تسانده وتستند عليه، تحتويه وتشعر بالأمان في كنفه، وما المرأة لزوجها إلا جدار البيت وهو سقفه، هي تحمله وهو يظلها بظله، هي تحميه من الانهيار، وهو يمنع سقوط الأشياء نحوها.

لا تفهم ماذا بسهولة؟ وفيمَ تفكر رغم أنها جزء منك؟! إنها حواء يا آدم!

....

"حلقت بي أعلى السماء وتركتني فجأة أرتطم بالأرض، من أحب!

إنها عشق الطفولة والشباب،

فهي حياة لكنها جعلتني بلا حياة"

تردد صدى صوتها داخل قلبه، وعقله أجّج نيران صدره، وانكوى قلبه بنيران الفراق، جعلته يركل التراب أمام قدمه ويصيح بأعلى صوته باسمها، يلعنها من أعماق عقله، ويلعن العشق الذي جعله في هذا الوضع، وقلبه

يلعنه كلما لعنها أو لعن حبها فقلب المحب لا يكره أبدًا، هدأت وتيرة أنفاسه رويدًا رويدًا فنطق اسمها بحب وحنان.

اقترب منه عاشق شبيه له في الصمت والوحدة، إلا أنه لم يحن الوقت للإعلان عن عشقه لمن ملكت قلبه.

-لو لفينا الدنيا كلها مش هنلاقي مكان غير ده نرتاح فيه.

-حمزة بابتسامة دون النظر إليه علم من صوته أنه الطبيب "ريان" بن عم حياة وصديقه المقرب فقال في تنهد: يا ريت كان الزمان فضل واقف على نفس المكان، لا احنا كبرنا ولا هو اتغير، يا ريت زمن الطفولة البريئة يرجع وميتحركش.

-مينفعش يا صاحبي، دي إرادة ربنا، ليه حكمة في كده، إنك تكبر وتحب وتتجوز، حتى إنها تجننك وتطير النوم من عينك ده مكتوب.

-تابع حمزة بتنيهدة يأس مسموعة: والنهار ده بالذات قطعت كل خيوط الحب، وللأسف مش هيداويها غيرها، وضحك بسخرية: دكتور ومش عارف أداوي جراحي، لأن الشفا اللي طول عمره على إيديّ، النهاردة شفايا على إيديها، مجرد نطق اسمها من لساني وبين ثنايا قلبي دواء وعلاج ليا، هي بقت كل حاجة، بقت الهوا والمياه، فعلًا الحب ده معناه إنك توافق إن حد يمتلكك ويمتلك فرحك وحزنك، أنا اللي طول عمري حر بقيت أسير، لا وإيه بزعل لو أطلقت سراحي.

-ريان وهو يربت على كتف صديقه بحنان مقتربًا منه: اصبر عليها دي زي مرجان، افتكر أخدت وقت قد إيه عشان يبقى معاك كده وتوصل لنتيجة تفاهم وانسجام بينكم، كل فرس ومحتاج مروض! الصبر حلو يا حمزة.

-مط حمزة شفتيه بضيق وتنفس كأنه يخرج نارًا اشتعلت بداخله: بس دي صعب ترويضها لأنها مش شيفاني قدامها أصلًا، تعبتني جامد، وبرضه بحبها، قلوبنا دي غريبة أوي يا ريان.

-ما زال ريان يرد باسم العقل والقلب: لا أنت شايف ولا هي شايفة أو بمعنى أصح لا مش عايزين تشوفوا، محدش فيكم بيعترف بغلطه ولو حتى علشان يرضي التاني، التنازل يا حمزة في الحب حلو، بس يكون من الطرفين.

-صح جدًا، معاك حق يا ريان، هما مش عايزين يشوفوا، لو أدوا نفسهم فرصة يبصوا كويس ويتغاضوا هتبقى دنيتهم تمام، قالها حسام وهو يلف إحدى ذراعيه على حمزة والأخرى على ريان، وطالت نظرته نحو ريان قائلًا: حتى الواعظ نفسه شايف ومش عايز يتكلم.

-حمزة مرددًا بتيه وعدم فهم للكلام: أنت بتقول إيه يا حسام؟

-عقد حاجبيه بنظرة حانية لريان، خفض بصره ريان على إثرها فابتسم حسام: ده جراب الحاوي يا حمزة، واللي النهار ده هنحط إيدينا في إيد بعض عشان نساعد بعض.

-علت دقات قلب ريان، وازدرد ريقه بصعوبة، وقال بتردد: أنت تقصد إيه؟

-حسام: اللي مخليك أنت وهو واقفين عند نفس المكان ونفس اللقاء، ثلاثي الأزواج ومش عايزين تنسوه، ونسيتوا إن المكان والزمان والأشخاص نفسهم اتغيروا.

-حمزة بعدم فهم: لا، بس أنا متغيرتش.

-حسام: ودي المشكلة يا حبيبي، لازم تواكب تغير الحدث نفسه علشان تقدر تأقلم نفسك مع الواقع، الماضي ملهوش غير ذكريات حلوة لكنها مش هترجع.

-ريان بتحفظ: تفتكر كده بعد ما أنا اتغيرت ممكن توافق؟

-حسام: هنشوف رأيها، يا ريان متقلقش، إن شاء الله خير، احنا معاك.

-حمزة: هي مين؟ وتوافق على إيه؟ متفهموني يا جماعة.

-حسام: باقي الثلاثي.

-حمزة باستنكار: تقصد ريم؟

-هز ريان رأسه بشجاعة جاهد كي يبديها: أيوة أنا عايز اتجوز ريم وبطلبها منكم.

****

الفصل الرابع

ودعت الشمس كبد السماء حتى أنها بدأت تتوارى في الأفق، زيّنته بخطوط الشفق الأحمر فرسم على محياها الخجل، أسدل الليل ستار السكينة على الكون وغطى الأشياء من تحته بلون السواد، وكذلك وضع الأصدقاء الثلاثة بداية جديدة لكل منهم عليه أن يقرر ترويض مهرته الخاصة بطريقة تتناسب وعقلها، على كل محب لفاتنة عقله أن يعرف كيف يعيدها إلى ثنايا قلبه ويظلها بجناحيه حتى تشعر بالأمان، إن كانت هي شعلة من نار عليه أن يخمدها بهدوء حتى يطفئها، أما إذا كانت فرسًا جامحة سيروضها بالقوة، والحكمة، والهدوء معًا، وأحدهم قرر في نفسه أن يحرك صخرة الحب القابعة على قلبه وأن يفتتها لأنها تحول بينه وبين محبوبته، وأن يشق طريقه ويعقد قرانهما، زواجًا شرعيًا ليتم ما أحله الله له، قد اكتفى شوقًا لقربها وبادر بطلب القرب.

أما الثالث وضع نصب عينيه حلم الشباب واستعد لخوض معارك ضارية تكمن في الطبقات والفوارق الاجتماعية، وألا يكتمل هلال الشهر الحالي إلا وحوريته قد كُتبت على اسمه، البداية حتمًا ستكون اليوم.

سبحان من أبدع في خلق المرأة وجعلها لينة تحتوي صلابة الدنيا وقسوتها مع زوجها، سبحان من خلقها من ضلعه لتكون عونًا له، لم يخلقها من

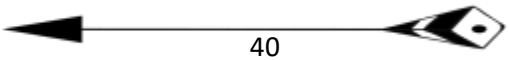

رأسه لترأسه، ولا من قدميه لتكون جاريته كما يظن الحمقى، لكل فتاة جمال خاص بها، ودلال تأسر به قلب زوجها، سحر يجذب العاشق لها.

....

حور.. الفتاة الصامتة

صمتها سكونها، فتنت قلب حسام وأوقعت في عشقها دون مجهود منها أو محاولة للفت انتباهه، لكنه يرى الخوف في عينيها، نصل حاد بنظراتها إليه، أقسم ألا يجعلها زوجته شرعًا حتى يزيل خوفها تجاهه، أن تكون له دون خوف إنما حبًا له ورغبة به، أيقن أن الأنثى إذا شعرت بالأمان بين ذراعي رجل ملّكته قلبها، فهي لا تكترث لماله، ولا لجماله، ولا يفرق عندها غناه من فقره إذا كان رجلًا حنونًا، فجاهد كي يذلل الطرق ويسخر الصعاب ليزيل خوفها القابع بأعماقها.

-شرع في تجهيز أفضل باقة ورد لزوجته حبيبته، تضم أرقى الورد والزهور يغلب عليها اللون الأبيض لعشقها له وراحتها النفسية تجاهه، ودون عليها "حبيبتي باقة ورد، إذا لمستها باتت أقل جمالًا منك"

وسلسلة ذهبية فاخرة على هيئة قلب تجمع اسميهما معًا "حسام وحور"

مرفق معها خطاب مسطر من داخل طيات وثنايا قلب عاشق

"لا تخافي معشوقة السيف، من أجلكِ كنتُ سيافًا أقطع رقاب الناظرين إليكِ، لكن في حضرتك أنحني وأقدم فروض الطاعة، يتناثر كبريائي وتتساقط هيبتي أمام عينيكِ، بعيدًا عنك أخشى عليك قوتي، فإذا اقتربت

انهارت حصوني، رفقًا بي حبيبتي فالبعد أضناني، وشوقي إليكِ كشوق غريب غائب عن وطنه طالت سنوات غربته آن أوان عودته، أتدركين حجم الاشتياق لتراب الوطن يا وطني! وكما كنتِ حورية لي في الدنيا بفضل الله وكرمه وإشفاقه على قلبي، أدعو الله أن تكوني حوريتي في الآخرة، أعلم أنكِ تنزعجين من أمي وعباراتها القاسية، لكن لا أحد يختار أهله وأنا أدافع عنكِ بقدر المستطاع، فلا أريد خسارتك ولا أطيقها، ولا يصح أن أخسر أمي، لذا فتحملي لأجل من أحبك حبًا لو وزع على بني النساء لكفي، أحبكِ يا زوجتي العزيزة".

يا لها من عبارات ذرفت عينا حور شوقًا وحبًا لحسام، ضمت الهدايا لقلبها وأغمضت عينيها اللتين ذرفتا بدموع الفرح والبهجة، وبدا شعرها الكستنائي الطويل المنسدل على كتفيها كأنه خيوط حريرة أضرجت بلون الذهب، فقد كانت ذات قوام ممشوق، وبشرة بيضاء مضرجة بحمرة الخجل، وطول يناسب جسمها المعتدل، تحدثت بحنانها المصبوغ بالهدوء: الراجل اللي قوته بره الباب ده لو جاب سيف وحطه فوق رقبتي هنا استحالة أخاف منه أو أزعله، لأنه قرر يمحي الخوف مني ويبدأ معايا صفحة جديدة، وهتحمل أمه علشانه، البيوت ياما فيها مشاكل.

-دخل حسام الغرفة بخطوات حذرة واقترب منها وضمها لقلبه: يا أجمل حور في الدنيا، إيه الدموع دي، وازاي حد يكون بيعيط وقمر كدا؟ ثم طبع قبلة حانية على جبينها.

-لطالما كان الخجل يرتسم على محياها رغمًا عنها وكان هذا سببًا في جمالها، جففت دموعها وغيرت مجرى الحديث تمامًا: أخبار حمزة إيه؟ أنا مكلمتش حياة ولا أعرف اللي حصل!

-حسام بعد أن تنحى جانبًا وجلس على الفراش بجوارها مبتسمًا لما دار بخلدها: كل خير متقلقيش.

وقرر أن يغير مسار الحديث إلى دفة أخرى: ريم جاي ليها عريس.

-حور بصدمة فرح: بجد؟ بس ده مين هي مش عايزة تتجوز دلوقتي، بتقول هتخلص دراستها وتذاكر كمان دراسات عليا و...

-قاطعها حسام بنظرة خبث أسكتتها عن الحديث: وأنتِ عرفتِ منين بقى؟

-حور: ها، لا معرفتش ولا حاجة يعني، واحنا بنتكلم عادي وبنحكي الكلام جاب بعضه.

-حسام بنصف عين زائغة: يعني أنتِ رأيك بلاش أقولها عشان منشغلهاش عن المذاكرة ومعرفهاش إن دكتور ريان ابن عمك متقدملها ونرفض وخلاص أصله كلمني دلوقتي ومستعجل الرد، خلاص هقوم أبلغه يشوف حاله وخلاص.

-حور بسرعة وهي ترفع كلتا يديها نحوه: لا اصبر يا عم، قولها ونشوف رأيها وإن شاء الله توافق، وهقولها أنا كمان.

ابتسم حسام فهذه الحورية ليست متصنعة، ولا تعرف كيف تخبئ ما بداخلها، كلؤلؤة ناصعة البياض، إنما بطبيعتها تتحدث كيفما تشاء دون أن تؤذي مشاعر من حولها، انكمشت على حالها داخل مخبأها قرب قلبه، قبلها ورحل قبل أن يتهور ويفعل ما يتمناه منذ زمن لكنه يؤجل ذلك إلى أن تهدأ، وما بداخله لا يهدأ إحساسه يذهب به إلى قاع الأرض وقمة السماء.

....

ترك حمزة جواده لأخيه حسام متعللًا بأنه يفضل السير على قدميه ليلًا يحب بروده وأمطاره، والسماء الصافية ونجومها وقمرها، يحلق بعينيه وقلبه بعيدًا عن صخب البشر ومتاهاتهم، من أعماقه كان يحب الوحدة.

ربما يذهب هذه المرة لزيارة والد حياة ووالداتها السيدة الحنون، حياة تشبه أمها في ملامحها، لكن حور أخذت عنها الهدوء والطيبة، ورجاحة العقل.

دق باب المنزل وفتح "محمود" الباب، رحب كثيرًا بحمزة، دخل المنزل البسيط عكس السرايا تمامًا بمقاعده البسيطة وسقفه الخشبي، ورائحة الطوب اللبن، لكنه مليء بالحب والألفة، وعذوبة أنفاس أهله الأنقياء، جلس بارتياح وصفاء نفسي شعر به لأول مرة منذ زمن بعيد.

استأذن محمود لإنجاز بعض الأعمال لما أحس به داخل من كلام كثير ولا يود إخراجه بوجوده، فمنذ زواج حمزة بحياة وجد الألفة بينه وبين والدة

حياة يرتاح معها بالحديث أكثر، هي تحل المشكلات بالعقل وتتبع الحق وإن كان على رقبتها.

عم الصمت المكان زمنًا طويلًا، تحركت "ثناء" لتجلس بالقرب منه فقد رأت أنه بحاجة إلى الكلام، لكنه لم يتغير أو يهتز، فبادرته بسؤالها: حياة وحور عاملين إيه يا ابني؟ وأهلك رجعوا بالسلامة ولا لسه؟

-حمزة بتنهيدة تحمل أثقال الكون فوق عاتقه: خير يا طنط، كلنا بخير، بخير الحمد لله على كل حال.

-تعجبت "ثناء" الرد ونبرة الصوت الشجن: يا ابني ما بلاش طنط دي، أنا لو كان عندي صبيان كان زمانهم في عمرك دلوقتي، وقول ماما ولا أنا منفعش أكون ماما!

-ألقت ضوء أخضر لحمزة جعله يشرع في الجلوس مقتربًا منها فربتت على كتفه بحنو بالغ قائلة: حياة عملت إيه مخلي نظرة عينك حزينة؟!

-أطال النظر لها دون فتح فمه أو الحديث معها، تمنى لو أراح رأسه فوق فخذها وينام بعمق أو يتحدث مغمضًا عينيه ولا يدري ما يخرج من كلمة يتفوها.

حتى رآها تتحرك من مكانها وقامت بفتح الخزانة بجواره وأخرجت منها مجموعة صور تضم حياة وحور وأردفت بشجن: طيبة جدًا وقلبها أبيض بس هي مبتحبش حد يعاملها إنه أحسن منها، وشافت كتير عشان حور، وكانت بتزهق لما العيال تتريق عليها عشان مش بتتكلم، حتى لما حور

اتكلمت والموضوع خلص، بس السبب الأساسي إنها عصبية وعلى طول غضبانة إن كان ليها واحدة صحبتها في الكلية، كانت فكراها صاحبتها وهي في الحقيقة بتضحك عليها وبتتريق عليها عشان من فلاحين يعني ده سبب جواها فكرة إن معظم الناس مؤذيين، فاكرة إن صوتها العالي ده قوة وإن كده محدش هيقدر يجي عليها.

-حمزة بضعف: عارف طيبة قلبها، بس تعبتني يا أمي وجت عليّ، وكسرتني قدام أهلي.

-ثناء بشهقة حزن: بعيد الشر عنك يا ولدي من الكسرة، ده أنا أكسر لك رقبتها لو عملت كده.

-حمزة: لا يا أمي، هي لازم تعرف إن أنا غير كل الناس واتجوزتها عشان بحبها، سكوتي مش ضعف ده حب ليها.

-ثناء بابتسامة مشرقة: ربنا يكملك بعقلك يا ابني ويهديها.

-حضر محمود بعد وقت طويل وتساءل في مزاح: خلصت السر مع أم حياة ولا لسه؟ كفاية بقا عايزين نشرب شاي.

-ثناء: طبعًا مش ابني وفي غلاوة حياة وحور.

-محمود بتنهيدة ارتياح: ربنا يبارك فيكم يا ابني ويرزقكم الذرية الصالحة.

"أغمض عينيّ كما أشاء، فأنا أراك بقلبي، فالقلوب تميل لسكانيها، أودعتك الفؤاد من قبل، تقبله مني إن أردت، فإن لم تقبله فلا حياة لي"

-طال انتظاره وجلوسه بمحطة القطار، يضم الأمل بين ثنايا صدره في رحلة سفره التي ستبدأ بركوب القطار من بلدته النائية حتى المعمورة "القاهرة" بحثًا عن فرصة عمل لتحقيق حلمه بعد إنهاء شهادته المتوسطة بالتعليم الفني منذ خمسة أعوام لخلق مستوى اجتماعي جديد والبدء بعمل بسيط منه إلى العمل الكبير، وربما أيضًا التحاقه بإحدى الجامعات المفتوحة، كلها أحلام وأمنيات مستقبله.

حاول أن يبني نفسه وسط قريته، عمل بالكثير من المهن إلا أنه برع في عمله كنقاش ولحبه للرسم، يجعل من الحيطان لوحات فنية، لذلك نصحه أكثر من صديق بالسفر إلى قاهرة المعز، فرص العمل هناك متاحة للجميع.

أعلنت إشارات وصافرات إنذار المحطة عن وصول القطار، لملم حقائبه حتى وصل القطار وعلى عجل ركب، بحث عن مكان للجلوس وجده بصعوبة بالغة، فالرحلة طويلة، هذا قطار محطات يقف بجميع المراكز، أثناء شروده محتميًا بحقيبته، وجد كف طفلة فوق ذراعه رفع رأسه واحتلت وجهه ابتسامة لهذه الطفلة رغم ملابسها الرثة إلا أنها تمتلك عينين سمراوين نجلاوين.

-ربت على رأسها: عايزه إيه؟

-رفعت بعض الأقلام والألعاب بوجهه، أخذ الأقلام منها ودس يده بجيبه ليخرج لها المال إلا أن القطار باهتزازه المتعارف لدينا جعلها تهتز، قبل أن تقع أمسك بها فجرت والداتها نحوها تطمئن عليها، أخذتها منه بعنف

وتركته ورحلت، ظل ينظر بأثرها غير مصدق لما رآه هل هذه ليال جارته؟ أيعقل ذلك أن يراها بعد كل هذه السنوات؟

وفي ذلك اليوم تحديدًا الذي قرر فيه البعد عن الجميع! ردد بوجع: آه يا ليال.

****

الفصل الخامس

"يفتك بيَ الألم جراء ما فعلته معي، يقطعني إربًا من الداخل؛ ولكن ليس بيدي سوى أني أود أن أضمك بين ذراعي، ربما تُضَمّد جراحي، وتلتئم روحي، يا حياة القلب والروح"

-دخل حمزة إلى السرايا بعد منتصف الليل، وجد والده يجلس في انتظاره، فألقى عليه السلام وتوجه مباشرة للصعود على الدرج ليذهب إلى غرفته، أوقفه نداء والده باسمه، فالتفت سريعًا إليه دون أن يرفع بصره، ورأسه منكسًا إلى الأسفل:

-مش دا الحل، الحل إنك تكون دايمًا رافع راسك في كل وقت مهما حصل، المحنة هي اللي بتخلينا إما أقوى، يا إما أضعف، وإنت أقوى من أي شيء وهتقدر تتغلب على كل حاجة ولكن إياك تضعف وتستسلم، مراتك يا ابني بنتنا من يوم ما اتكتبت على اسمك، والمفروض إنكم بقيتوا كيان واحد، روح واحدة في جسمين، والأهل المفروض عليهم إنهم يعلموا بنتهم الكلام ده ويعرفوها إن جوزها ليه حقوق وواجبات عليها وإنها لازم تفهم إنها يوم ما بتتنقل من بيت أبوها لبيت جوزها وقتها بتكون إنسانة جديدة ولازم تنسى كل اللي فات من حياة الترف وتعرف إن وراها مسؤوليات،

وعمومًا مهما عملت؛ علشان خاطر حبك ليها هنسامحها وعشان خاطرك إنت هنستحملها.

-شكرًا يا بابا إنك واقف معايا، وبتساندني!

-إنت صاحبي قبل ما تكون ابني الكبير، يعني عكازي في الدنيا، ونصيحة من راجل عجوز يا دكتور حمزة: خيط جراحها القديمة؛ علشان ميبقاش في أثر لو اتجرحت جرح جديد.

-استوعب حمزة كلام والده إليه، وقام بهز رأسه بالموافقة، ثم استأذن والده في الذهاب إلى النوم، كل ذلك كان تحت مسمع ومرأى كلٍّ من والدته، وحياة اللتين ذهبتا سريعًا إلى غرفتيهما.

دق باب غرفتهما ولم يدخل كعادته مباشرة، انتظر قليلًا حتى فتحت له الباب، فدلف إلى الداخل ثم أغلق الباب، واتجه مباشرة نحو الفراش وجذب غطاءً ووسادةً وتوجه بهما نحو الأريكة؛ تحت أنظار حياة التي لم تتعجب للأمر كثيرًا فقد اعتادت على تصرفاته، ولكنها تألمت بداخلها وضحكت بسخريةٍ واستهزاء بينها وبين نفسها؛ فكانت قد تزينت وارتدت أفضل ما لديها من ثياب، وتعطرت بأكثر العطور المحببة إليه، ولكن قد فات الأوان، لكنها لم تحاول ولو مرة أن تنطق بكلمة اعتذار واحدة؛ لعلها تهدم تلك السدود التي بنيت بينهما جراء تصرفاتها الهوجاء، فكبرياؤها يمنعها من أن تعتذر أو حتى تقوم بأي مبادرة لتصلح ما قد أفسدته بتعاليها وتصرفاتها المتعجرفة، بينما توجه هو إلى الأريكة وجلس عليها

واضعًا إحدى ساقيه فوق الأخرى، ومكث يطيل النظر إليها وهو يتمعن بتقاسيم وجهها وعيناه مصوبتان تجاه عينيها مباشرة، ولكنه لم ينطق ببنت شفة، لم تلقِ بالًا لكل ذلك وتظاهرت وكأن شيئًا لم يحدث، ولكن ما أشعل نار غضبها وبشدة؛ أنه ابتسم بسخرية وهز رأسه باستهزاءٍ، وقام بتفقد هاتفه وكأنه يجلس وحيدًا بالغرفة.

-زفرت تنهيدة بصوتٍ عالٍ علها تصل إلى مسامعه، وبصوتٍ مهزوز قليلًا: حمزة!

-دون أن ينظر إليها أو يعيرها أي اهتمام: مسمعش صوتك لحد الصبح!

اعتلت الصدمة وجهها وشعرت بانقباضة في صدرها، ولم تنبس ببنت شفة مرةً أخرى، فلم تتوقع رد الفعل ذلك منه، لقد كانت نبرة صوته غليظة وجليدية، بثت الرهبة في قلبها، ففضلت أن تبتلع لسانها وتصمت تمامًا حتى الصباح، وكانت تعي جيدًا أنها ستكون أطول ليلة ستمر بحياتها وحتى تشرق شمس صباح اليوم التالي.

....

انتهت ريم من بعض الأعمال على الحاسوب النقال، فقامت بإطفائه ثم أغلقته، وقامت بإخراج جوالها، وضغطت بأصابعها على واجهته لتضيء شاشته، وتوجهت مباشرةً تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، فلفت انتباهها وجود طلب صداقة على ذلك البرنامج المسمى "فيسبوك"، وحين دخلت صفحة الشخص الذي أرسل إليها الطلب، استرعى انتباهها وتوقفت كثيرًا

وهي مثبتة نظرها على الاسم وتتصفح المعلومات بعينيها سريعًا، أغمضت عينيها لبرهة من الزمن وتذكرت أن ذلك الشخص يتصدر محرك البحث خاصتها، إن لم يكن هو الوحيد، فكلما ولجت إلى حسابها الشخصي، تقوم بتصفح حسابه الخاص والاطّلاع على أخباره، وتمكث في صفحته بالساعات لكي تقرأ كل حرف يدونه على صفحته، بل وصل بها الأمر أنها كانت تظن أحيانًا وتشعر بأن كل كلمة كتبها هي موجهة لها في الأساس وكأنه يعنيها بكل حرف يكتبه، وتنسج في خيالها صورًا لذل الورد وتتصوره وهو يهديه إليها، ويضعها بين يديها، وكانت على يقين تام بأن هذا ما سوف يحدث يومًا ما.

والغريب أنه كان يقوم بنفس ما تفعله هي من تصفح لحسابها، وما تنشره من كلمات منمقة ورقيقة تنم عن الحب والمشاعر الجميلة، ولكنها تناجي حبيبًا غائبًا، وأوقات يجدها تكتب عن أجمل أيام حياتها في الطفولة.

مرت دقائق عدة وهي غارقة في التفكير وقد أبحر خيالها وعقلها إلى بعيد تمامًا، حتى استفاقت على صوت إشعار رسالة، ولكن ما أثار دهشتها أن الراسل ليس من أصدقائها المتصلين بصفحتها، ولكن ذلك الاسم؛ فهي تحفظه وتصمه عن ظهر قلب، فهو النبض بداخه، لم تستطع صبرًا وقامت بفتح الرسالة سريعًا:

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

-أصابتها الحيرة من أمرها، وظلت تفكر لوهلة، هل ترد عليه؟ أم لا؟

طُرق الباب، فأخرجتها طرقاته من شرودها، دلف حسام إلى داخل الغرفة، وحين وقعت عيناه عليها راوده الشعور بأنها تبدو بحالة غير طبيعية، يغلب عليها الارتباك والفوضى، ووجهها يشع حمرة وخجلًا، فتوقع بأن يكون ريان قد سبقه في التحدث إليها، ولكنه أراد أن يتلاعب بأعصابها قليلًا:

-اسمعي علشان معطلكيش، فيه عريس عايز يقابل بابا أقوله إيه؟

-فأجابته مسرعة ودون تردد أو تفكير: مش موافقة.

ومع وصول إشعار الرسالة الثانية، بدا توترها كثيرًا، وازدادت رجفة أصابعها، فبادرها حسام بلؤمٍ كبير:

-قوليله إنك مش موافقة! أو أقولك أنا هتصل بيه.

-تنصت إلى كلماته والخوف والرهبة قد تملكا منها وتسأله بحذر: هو مين؟

-الي بعت الرسالة دلوقت، ريان!

-تجمد الدم سريعًا بعروقها وانتابتها قشعريرة إثر سماعها لحروف اسمه، وهي تتساءل بينها وبين نفسها كيف عرف ذلك؟ حتمًا سيقضي عليها! لكن فاجأتها ردة فعله كثيرًا وفغرت فاها من فرط دهشتها، فقد وقف حسام أمامها مبتسمًا وهو ينظر إليها ولا ينطق بكلمة، وهي تنظر إليه بدهشةٍ، غير مصدقة لما حدث، وهي تُحدث نفسها، هل هذا حسام؟! يتحدث بكل طلاقة عن ريان ولا يبدي أي ردة فعل هكذا، وكأنه أمر عادي يتناقشان به، يالله! لابد أنها حور، اسمًا وقولًا وفعلًا، ولكن بطريقة

فجائية تبدلت الابتسامة التي كانت قد رسمت على شفتيه منذ قليل، إلى علامات غضبٍ بالغ وكأنه تذكر شيئًا خطيرًا، تعجبت ريم كثيرًا من ذلك التحول المفاجئ البادي على ملامحه، فلم تحاول أن تنطق، أو تقوم بسؤاله عن سر هذا التحول المفاجئ، حتى تكلم هو وأزاح الستار وبدأ ينفث عن غضبه، قائلًا بصوتٍ شبه حاد: أنتِ رديتي على رسايل ريان؟

-هزت رأسها ويدها معًا سريعًا، وهي تجيبه بالنفي، والخوف يتملكها ويملأ قلبها وترتعد أوصالها، وصل ذلك الإحساس إليه، تحرك جانبًا، وفتح ذراعيه ليضمها إلى أحضانه بكل حب وفخر، شعر بدقات قلبها تتسابق معًا، فقام بتقبيل رأسها بجميع مشاعر الإخوة والاحتواء، لكي يبث إليها الطمأنينة وتهدأ قليلًا، فتسرب إليه هدوء دقات قلبها، شعر ببعض الراحة نوعًا ما: تعالي اقعدي يا ريم.

-جلست بجواره وظلت تفرك يديها، قام حسام بالإمساك بيديها، وطلب منها الهدوء وحقها على عدم التوتر، وبدأ يسرد عليها تفاصيل اللقاء الذي جمعه بريان، وقام بإلقاء بعض النصائح على مسامعها، وبث إليها بعض الكلمات المطمئنة: يا ريم، إنتِ أختي، وساعات كتير بحسك بنتي الصغيرة، إنتي بريئة جدًا، وكل حاجة جواكِ بتبان في عينيكِ، ولولا إني عارف إن ريان بيحبك وإنتِ كمان مكنتش وافقت! ومتقلقيش، أنا جنبك وهفضل جنبك، وصمت قليلًا، ثم أردف قائلًا: مش لوحدي على فكرة، حمزة كمان

جنبك معاكِ، ومتخافيش طول ما احنا موجودين، وقام برفع كلتا ذراعيها إلى الأعلى، شايفة دول؟

-فهزت رأسها بالإيجاب.

-دول أنا وحمزة، لو ينفع تستغني عن واحد منهم يبقى هتستغني عن واحد مننا، إوعي تخافي أبدًا احنا معاكِ وسندك.

-تساقطت الدموع من عينيها دون أن تشعر، واحتضنت أخاها بحميمية وحب وتبعتهما ببعض الدعوات، سائلة الله أن يرزقه السعادة وراحة البال، وأن يديمه سندًا دائمًا لها.

-ربت على كتفها بحنو بالغ، وطلب منها بنبرة تحذيرية: متردیش على الرسايل يا ريم، وأمسك بهاتفه وقام بإجراء مكالمة هاتفية، وتعالت نبرة صوته دون أي ترحيب للمتصل: احنا اتفقنا إنك تاخد خطوات إيجابية يا دكتور! مش تخبط على الشبابيك، كان المفروض تكلمني وتستأذني إنك هتبعتلها، أو على الأقل تستنى أما أرد عليك سواء بالرفض أو الإيجاب، مش دي الأصول برضه، ولا إيه؟

-شعر ريان بالحرج الشديد، واشتعلت وجنتاه من شدة الإحراج، فقام بالاعتذار وأخبره بالغ أسفه، ثم قام بإنهاء المكالمة، وأغلق الهاتف، استدار بوجهه إلى ريم: أختي طول عمرها هتفضل ملكة وغالية، ولازم يتعب عشان يوصلك ويعرف يحافظ عليكِ وإنك مش لوحدك.

-عمري ما تخيلت إنه يكون جواك كل المشاعر الحلوة دي، أو حتى إنك ممكن تقعد تتكلم معايا كده، كنت عارفة إنك طيب وجواك شخص تاني غير اللي ظاهر دايمًا لينا، دايمًا كان حمزة هو الهادي والقريب، وطويل البال، وهو اللي بيسمع مني، إنت بجد اتغيرت خالص، لدرجة مش قادرة أوصفلك فرحتي وسعادتي بيك، بس يا ترى بقى إيه السبب؟! حور، مش كده؟!

-وعلى ذكر اسمها انتفض قلبه، ثار بين ضلوعه، وشعر كأن روحها قد احتلت كيانه، وسرح بها وفي كل تقاسيمها وتفاصيلها، وشرد قليلًا متحدثًا عنها وعن صورتها التي تسكن خياله: حور دي الأمانة اللي ربنا بعتهالي، ولازم أحافظ عليها، الهدية اللي لازم تفضل جوا قلبي ده مكانها اللي اتخلقت ليه وصعب تخرج منه لو مهما حصل، أصفى قلب وأجمل ضحكة بتنور دنيتي وتخرجها من العتمة للنور.

-بتتكلم عنها بكل الحب يا حسام، كل حرف بيخرج منك بيقول إنك بتحبها، ربنا يديمكم لبعض.

-تنهد، وأخرج من صدره زفيرًا عاليًا: لأنها تستاهل إنها تتحب يا ريم، وحقها عليا أني أتكلم عنها بكل الحب وأوفيها حقها، بس طبعًا مش هتكلم بالشكل ده مع أي حد؛ أنا بقولك إنتِ الكلام اللي لازم الزوج يقوله ويعمل بيه مع زوجته، لأنك أختي ولازم تكوني عارفة كويس علشان يوم ما تتجوزي تكوني عاملة حسابك إن علاقة الزوج والزوجة ربنا وصفها بالمودة والرحمة، ودول أهم حاجتين لازم يكونوا موجودين وحتى إنهم أهم

من الحب نفسه، وإنك لو اتعاملتِ مع زوجك بِحُب ورضا وإخلاص، هو غصب عنه هيعاملك بالمثل، لأنه المفروض يكون متربي وعلى خُلق ويعرف يقدر قيمة الزوجة اللي ربنا كرمه بيها وقيمة الحياة الزوجية.

-صعبان عليا حمزة أوي يا حسام!

-متقلقيش عليه، كل حاجة هتتصلح بس هي مسألة وقت.

-استأذن حسام للرحيل، لتسرع هي وتتفحص الهاتف وتبدأ بقراءة رسايل ريان للمرة المليون، وتتصفح حسابه، ثم راودتها فكرة أن تكتب شيئًا ما على حسابها، وبدأت بكتابة بعض الكلمات؛ وكأنها تود أن توجه رسالة لأحدهم:

-"قبل خمسة عشر عامًا كنت مجرد طفلة، تسعد بأي شيء وبكل كلمة ولو بسيطة، واليوم عاد إلي نفس الشعور، وعدت لتلك النقطة مرة أخرى، فزادت فرحتي"

ومن ثم أغلقت هاتفها وتوجهت مباشرة للنوم، وهي تشعر بالراحة، وسعادة تملأ قلبها وكأنها قد حصلت على العالم برمته، وذلك الحب الذي نبت بداخلها من الصغر ولم تستطع يومًا أن تفصح عنه، قد آن الأوان ليعلن عن نفسه بقوة، وبترحيب من الجميع.

في تلك الأثناء قام ريان بتصفح حسابها كعادته يوميًا، وحين قرأ الرسالة التي وجهتها له بطريق غير مباشر، اعتلت الفرحة قلبه وكاد يطير فرحًا، وأغمض عينيه والابتسامة تعلو شفتيه وأطلق تنهيدة تنم عن تأنيب الضمير، ولام نفسه كثيرًا؛ فما كان يجب أن يراسلها على الخاص دون علم حسام بذلك، ولكنه حاول أن يجد لنفسه مبررًا، وحدث نفسه بأن من المؤكد أن حسام سوف يلتمس له الأعذار، وقرب هاتفه من شفتيه وطبع عليه قبلةً، وكأنه اكتنز العالم بتلك الكلمات التي كتبتها هي لتعبر له عن موافقتها وسعادتها به، ثم احتضن هاتفه وحاول أن ينام، ولكن جافى النوم عينيه، ولم يغمض له طرف، وكان الوقت يمر ثقيلًا كالجبال، وهو ينتظر الصباح لتأتي معه البشرى، ويحثه على القدوم لكي يذهب إلى أبيها باكرًا لكي تكتمل تلك الفرحة، وتُكلل بالموافقة على خطوبتهما، ويباركها الجميع.

****

الفصل السادس

حياتنا مثل القطار، يسير على القضبان دون توقف، يقف على أعتاب الكثير من المحطات، في وقتٍ وزمنٍ، ومكانٍ محدد، ونحن أولئك الركاب، لكل منا محطة بداية يبدأ منها، ولكن لا أحد يعرف متى موعد محطة النهاية، حتى وإن كنت تعلم وجهتك جيدًا، لكنك لا تعرف قدرك أين سيكون!

كثيرون هم من يبتغون ويودون العودة إلى محطة ما من حياتهم، حيث أضاعوا فيها لحظاتٍ عدة من أعمارهم وهم يقفون على عتبات الانتظار، إنما وبكل أسف فإن قطار الحياة هذا، ليس له محطة للرجوع.

....

"**داخل القطار**"

-كانت "ليال"، تستقل القطار، ودقات قلبها تسابقه سرعة، ولا تدري أيهما أسرع، وصلت لمقعدها بصعوبة بالغة، بعد ما اقتحمت تلك الحشود الغفيرة من البشر العربات بحثًا عن المقاعد، قامت بضم ابنتها بين أحضانها وكأنها تحتمي بها من غدر الزمان، والدموع تنساب على وجنتيها وتعالت شهقاتها دون إرادة منها، ومن منا يستطيع في تلك اللحظات أن يسيطر على حزن أو حتى تلك الشهقات التي تعترينا أثناء نوبات البكاء المفاجئة تلك! رفعت ابنتها على كتفها وكأنها تريد أن تطمئن بها وباتت

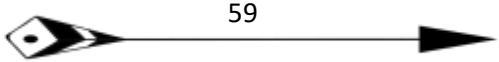

تكتم تلك الشهقات فوق كتف ابنتها، فزعت الطفلة من أنّات والدتها وشدة تشبثها بها، حتى غرزت أظافرها بلحمها دون أن تشعر بذلك الألم الذي تسببه لتلك الطفلة الصغيرة، مدت الطفلة يدها ومسحت على رأس والدتها، وتحدثت إليها برفق بالغ: ماما، وكررتها مرةً أخرى بصوتٍ عالٍ، يملؤه الخوف والرهبة، لكنها لم تنظر إليها، ولم تنتبه لكلماتها، ولا تكاد كلماتها تصل إلى أذنيها.

وفي نفس اللحظة، كان هو يقبض على معصمه بشدة، وهو يحاول كبت جماح المفاجأة، ومشاعره الثائرة المبعثرة تلك، وهو يطيل النظر إليها، لم تغب عنه قط، وبمجرد سماعه لصوت تلك الطفلة؛ تحرك إليهما وابتلع مرارة حلقه وذكرياته الحزينة، المثبتة في عقله إلى ما قبل خمس سنواتٍ، حب الطفولة والشباب، ذلك الحب الذي يصعب اختزانه في الذاكرة وتراه أمام عينيك في كل مكان، إنها "ليال" حب حياته التي هربت دون أي مبرر، لتقضي على جميع آماله وأحلامه بالعيش معًا في رغد الحب والحياة، حتى أنه ومن حينها قد أغلق قلبه عليها، ولم يستطع أن يقوم بفتحه لأي امراة أخرى، ها هي تقف أمامه، وتحتضن طفلة، لقد كان من المحتمل أن تصبح طفلته منها لو أنها لم تختفِ دون سابق إنذار، ابتسم بمرارة، وكيف له أن يلومها! وهو لم يخبرها أبدًا عن حبه الشديد لها، كان دائمًا ينتظر الوقت الملائم، حتى يكون انتهى من دراسته، لكن من منا يعلم الغيب؟ أو ما هو آتٍ إلينا،

سواء كان خيرًا لنا، أو شرًا، فلا يعلم كل شيء إلا الله، ونعم بالله العلي العظيم.

لم يستطع أن يشاهدها ولا أن يذهب إليها، أسرع الخطى بين الزحام حتى وصل إليها، وقف أمامها ووضع يده على الطفلة، مربتًا بهدوء على كتفها، وتارة أخرى يلامس خصلات شعرها المبعثرة حول وجهها، متحدثًا إليها بحنوٍ بالغ: متخافيش، ماما كويسة، تعالي معايا.

وجلت الطفلة كثيرًا من ذلك الغريب الذي يجذبها إليه، وحين شرع في نزعها من بين أحضان والدتها، ازدادت الطفلة تشبثًا بها، ومع ازدياد سرعة حركة القطار، قام بجذبها عنوة، وبصوتٍ عالٍ ومهتز يخرج من بين شفتي ليال: سيبها، البنت خايفة.

وحين تحدث إليها تعرفت على نبرات صوته القوية والمميزة، مما جعلها تترك الطفلة، لترفع بصرها إليه، رويدًا رويدًا، لتقع عيناها عليه وهو يقف أمامها، ويحتضن الطفلة مبتسمًا لها، استرقت النظر إليه سريعًا، ثم خفضت بصرها، كان الخزي يملؤها، وحين لاحظت السيدة التي كانت بجوارها أنه يعرفها، تحركت قليلًا، لتفسح له المجال، ليجلس بجوارهم.

"حياتك بين ماضٍ وحاضر؛ ما هي إلا مجرد ذكريات، تحيا بها، ويأخذك الحنين من وادٍ إلى آخر، قارورة الأحداث تمتلئ عن آخرها، إلا أنك تُفضل عدم تجاوز عنقها، والتطلع إلى المستقبل، حتى إذا ما فكرت بالخروج منها

وتجاوز أحداثها، تجد ما في القاع يقف أمام ناظريك، هل ستمضي قدمًا؟ أم ستعود أدراجك وتستدير للخلف تارة أخرى؟"

هذا هو حال "عمر سعد زناتي" أو كما يطلق عليه أصدقاؤه لقب "زناتي"، فتى يافع، ماهر بعمله، برغم كونه ما زال بعمرٍ صغير، إلا أنه استطاع بذكائه وفطنته أن يرتقي بعمله ويحصل على مركزٍ مرموق، فبالأمس فقط كان قد أتم عامه الخامس والعشرين من عمره، وحين قرر البحث عن مستقبل ناجح يمحي آثار الماضي، إلا أن الماضي أبى ذلك ووقف أمامه يعلن إصراره عن عدم التخلي، ها هي قد عادت "ليال" من جديد، لتقف أمامه بشحمها ولحمها، وبكل تفاصيلها التي كان وما زال يعشقها، أيعقل أن بعد كل هذه الليالي الساهرة التي قضاها بدونها، وهو يناجي طيفها، أن تعود ثانية؟

مر وقت ليس بالكثير، غفت فيه الطفلة وهو يضمها ويجعل من ساقيه سريرًا لها، لكي تطمئن إليه وتنام وهي قريرة العين، وبعد تفكير طويل، عاد من شروده، والتفت ناظرًا إلى تلك السيدة القابعة بجواره، وكان قد تملك الخوف منها، فظلت صامتة ولم تتحدث مطلقًا، إلا حين استطرد متوجهًا إليها بسؤالٍ واحد، ذلك السؤال الذي يظل يسأله لنفسه طوال السنوات الماضية، وهي وحدها فقط من تملك الإجابة عليه:

-ايه اللي حصل من خمس سنين يا ليال؟

-دفنت وجهها بين كفيها، وانهمرت دموعها الحارقة على وجنتيها، والألم يعتصرها من الداخل، وعادت بذكرياتها وهي ما زالت مغمضة عينيها، إلى الوراء حيث ذلك الماضي الأليم، تنهدت بعمقٍ من بين طيات صدرها، لتنفض آخيرًا ذلك السر الذي أثقل كاهلها، ولا يعلمه أحدٌ سواها هي وذلك الطرف الآخر المجهول، استطردت بمرارة حلقٍ، وبدأت تسرد عليه وتحكي له سرًا؛ ضاقت به ضلوعها لسنوات عدة، ولم تستطع أن تبوح به أو تخرجه لأي أحد:لما كنت بروح المدرسة في المركز، إنت عارف إن ده كان أقرب مكان لينا، وفي يوم وأنا بشتري حاجات قبل ما ارجع البيت، اتعرفت على واحد شكله راجل محترم، في الأول كان بيسأل عن أحوالي وعن المذاكرة، وقالي إنه هيساعدني فيها، لما عرف إني من مكان بعيد شوية، بس بعد فترة كان كلامه اتغير، وبدأ يقوللي كلام حلو، وكنت بقابله كتير وكان بيعمل كل حاجة تفرحني، وفي يوم قالي إنه عايز يتجوزني، طبعًا زي أي بنت في سني فرحت جدًا، وسألته هتيجي البيت إمتى، علشان تقابل أهلي؟

فقالي آه طبعًا هاجي في أقرب وقت بس يكون ظبط شوية حاجات ويجي، كل حاجة فيه كانت جميلة ومفيش بنت عاقلة ترفضها، زغلل عنيا وقالي كلام كتير علشان أصدقه، ولما مشيت وسبته ورجعت البيت؛ عرفت إن فيه عريس متقدملي، وإنهم موافقين عليه، وقرروا يقعدوني من المدرسة، ساعتها حسيت إن روحي بتتخنق جوايا وإني هموت بجد لو ده حصل، جريت عليه تاني يوم وقلتله كل اللي حصل، أخدني وقعدني في مكان وفضل

يحاول يهديني، ويقوللي متخافيش أنا مش هسيبك ومش هتكوني لحد غيري، وفجأة قالي إحنا لازم نتجوز، وترجعي لأهلك وإحنا متجوزين، ونحطهم قدام الأمر الواقع، ساعتها كنت صغيرة وبحبه وهو كان ليه تأثير كبير عليا، ومش فاهمة الصح من الغلط، وللأسف وافقته على كلامه، وروحت معاه من غير تفكير، وحتى معترضتش ولا طلبت إنه يجي البيت الأول ويحاول مع أهلي ويطلب إيدي، وافقت علطول ومشيت معاه، من كتر الحلو اللي كنت بشوفه منه، نساني اسمي والشيطان عمى عنيا.

وبدأت دموعها في الإنهمار بشدة، فلم يتمالك أعصابه وكأنه فقد القدرة على النطق، فأدار وجهه بعيدًا عنها، وقام باحتضان الطفلة بقوة من فرط غضبه، حتى رددت عبارة واحدة زادت من لهيب صدره وجعلت عينيه وكأنهما تفيضان جمرًا مشتعلًا من هول ما وقع على أذنيه.

-بس متجوزناش!

كلمة واحدة تحرق كانت قادرة على إشعال الحريق في كل ما هو أخضر ويابس منه، فنظر بدهشة لتلك الطفلة التي ترقد على ساقيه وهو غير مصدق ولا يستوعب أن تكون طفلة غير شرعية، وحين لاحظت شروده ونظراته المتفحصة نحو الطفلة، هزت رأسها بالنفي وهي تردد: والله دي بنت حلال، أنا اتجوزت.

-استشاط غضبًا وصاح فيها بشدة؛ فتوجهت نظرات جميع من بالقطار صوبهما: احكيلي الحقيقة بسرعة!

لقد نهش القلق قلبه وأكل من روحه، كل ذلك من أجل حب دفين بصدره منذ سنوات، فعاودت حديثها مرة أخرى، ليحيي رماد قلبه بوزغ أكبر مما مضى.

....

"لا أعلم إذا ما كُنت أشكو لكِ منكِ، أم أنني أشكو قلبي إليكِ، ففي كلا الحالتين، أنتِ القاضي والمالك، فسلامٌ على فؤادٍ رمم العشق أوصاله"

-ليلةٌ من ليالي ألف ليلة وليلة أمضتها "حياة" برفقة "حمزة"، ذلك الطبيب الذي قد قرر دون سابق موعد، أن يقوم بتقطيب جراحه، ولكن تلك المرة كانت دون مخدرٍ، وتعلو على شفتيه ابتسامة جذابة، ولكنها كانت تثير حفيظة حياة، الفارق الوحيد هنا؛ أن حياة كانت تنتظر حلول الصباح، لتجد عفو حمزة عنها ويا له من عفو، فهي تعي جيدًا حجم جرمها وتعلم جيدًا ما اقترفته من أخطاء، مرت النصف ساعة الأولى وكأنها ساعات لا حصر لها، فما زال هو يمسك بهاتفه، ويبتسم خلسةً بين حين وآخر، يجلس وهو ممد الساقين، ومسترخيًا بمقعده، ويختلس النظرات إليها خفية، وهي تنام في فراشها، لكن قلبها بين يديه، وعقلها لا يفكر إلا به، وعيناها لا تبرحانه.

لم تمر سوى لحظات إلا ودق هاتفه، فانتفضت من مكانها وهبت جالسة، نظر إليها ثم الهاتف بين يديه، وتحرك نحو الشرفة وهو ينظر إلى الهاتف وكأنه على موعد مع مكالمة غرامية.

-دقت ألهبة النار في أوصالها عندما بادرها قائلًا: خليكي مرتاحة، أنا هتكلم بره.

-هبطت مسرعة من الفراش، وتبعته بلا تفكير دون أن ترتدي حتى وشاحها، ولم تلتقط سوى آخر حديثه إلى الطرف الآخر: أنا جاي حالًا متقلقش، إن شاء الله هتبقى كويسة، وحين استدار بوجهه ليعود إلى الغرفة؛ اصطدم بها، فتحدثت إليه بنبرة عالية: إنت رايح فين دلوقت، إيه اللي حصل؟

-أزاحها جانبًا ليتمكن من الدخول إلى الغرفة، ولم يتفوه، ولم يجب على سؤالها سوى بكلمةٍ واحدة: خارج، عندك مانع؟!

-لا معنديش، بس طمني عليك.

-معتقدتش إنك عايزة تطمني عليا، إنتِ عايزة تعرفي أنا رايح فين وخلاص.

-حمزة، اسمعني، أنا عايزة أتكلم معاك شوية.

-لا، مش فاضي، لما أفضى نبقى نتكلم، ما كان قدامك فرص كتير للكلام، وعمري ما اعترضت لا على كلامك، ولا على صوتك العالي!

تركها مكانها حيث تقف ودلف إلى دورة المياه، وحين خرج توجه إلى خزانة الملابس، ينتقي زيًا مناسبًا، ولكنه احتار في اختياره، فقام بسؤالها: أيهما أفضل؟

ليزيد من جنونها المحبب إليه ويقوم بإثارة غيرتها عليه، فلربما يفلح الأمر وتغير من نفسها، فزفرت غاضبة: هو إنت رايح ميعاد غرامي؟! ما تختار أي لبس وانزل بسرعة، أكيد التعبان مش هيستناك لما تتشيك!

-ومين قالك إنه مش ميعاد غرامي؟! وبعدين على رأيك ألبس أي حاجة، ما هو كده كده أنا اللي بحلي اللبس، وبعمله قيمة.

وأرسل إليها نظرة خبيثة، وتركها تشتعل غضبًا، وقام بارتداء ملابسه، ونثر الكثير من العطر الفواح، ووقف أمام المرآة؛ ليصفف شعره بعناية ويهندم ملابسه، وهو يختلس النظر إلى انعكاس صورتها أمامه في المرآة.

كانت تغلي وتفور داخليًا، لكنها لا تملك القدرة على التحدث إليه، لم تعرف ماذا تفعل، لقد شعرت بجرح غائر في كرامتها، أو شبه إهانة لها بسبب طريقته الغريبة معها، نظرت إلى الأسفل وعادت أدراجها متجهة نحو الفراش، تلحفت بالغطاء لتخفي كسرتها ودموعها.

أما عن حمزة فقد شعر وكأن نظراتها خناجر مسومة قتلته حيًا، فانكسارها وضعفها جعل قلبه يدمي جراحًا، لم يكن يتمنى يومًا أن يحدث ذلك، ولكن هي من بدأت؛ وعليها تحمل عواقب أفعالها، ولكنه تساءل كثيرًا بينه وبين نفسه، عما إذا كان سيتحمل عذابها وحزنها!.

-"يا لكِ من حياة تقتلينني دومًا، اعتدتك شامخة عالية، ماذا ستفعلين بي أكثر من ذلك؟"

ألقى عليها نظرة أخيرة بطرف عينيه قبل أن يتوجه إلى باب الغرفة للخروج، جال بخاطره أن يعود للداخل مرة ثانية، دخل حمزة دون أن يطرق الباب، فوجدها تعقد أصابعها والحسرة تملأ وجهها وظهرت ملامح الدهشة والتعجب على وجهها: إنت رجعت ليه؟ نسيت إيه؟

-لم يجبها، ولم يلتفت إليها من الأساس ولكنه وقف أمام المرآة، قام بنثر عطرًا أكثر، وخرج مسرعًا وأغلق الباب من خلفه، لقد بدأ خطوات ترويضها له، وما عليهما سوى التحمل للمرور من عنق الزجاجة، انتابها شعور مؤلم بالوحدة وهي تجلس وحيدة في الغرفة، أزاحت عنها الغطاء وجلست واضعة رأسها بين كفيها، وقلبها ينعى نفسه، ويكاد ينفطر حزنًا وألمًا، والدموع تنساب من عينيها وتبكي بحرقة على نفسها، ففي تلك اللحظة أصبحت "حياة" بلا حياة.

أفاقت من شرودها على صوت طرقات على الباب، ولكنها لم تأذن للطارق بالدخول، ولكنه دخل من تلقاء نفسه، رَفعت عينيها، التي تحولت إلى اللون الأحمر من شدة البكاء، ووجهها الممتلئ بالعبرات، فوجدت ريهام تقف أمامها مباشرة، حاولت التحدث أو الصراخ، لكن دون فائدة لقد خانتها قواها، رأتها في أضعف حالاتها، فأعادت خفض رأسها ثانيةً بين ركبتيها، جلست ريهام على مقعدٍ بالقرب منها ولم تتحدث، وكأنه اختبار صامت للنظرات، ومن منهما ستبدأ بالتحدث أولًا، حتى بدأت ريهام بصوتٍ هادئ ممزوج بالقلق: أنا عايزة اتكلم معاكِ.

ظلت تنظر إليها دون حديث، أو إجابة، فتابعت ريهام حديثها: أنتِ عارفة إني مش بحبك، ودي حقيقة مش هقدر أنكرها، بس عمرك سألتِ نفسك مرة؛ أنا بكرهك ليه؟

تحدث صفير الليل، وأعلن عن نفسه بدلًا من صمتها، حتى تابعت ريهام: عشان إنتِ شبهي، وبتفكريني بنفسي زمان، ومش عايزاكِ تعيشي زيي، ولا ابني يتعذب وتعيشي بكبرياء، والناس تاخد عنك فكرة مش صح، وإنتِ قلبك غير كده، حمزة شافك من جواكِ، بس أنتِ بتضغطي عليه، أنا هحكيلك من الأول، ووقتها إنتِ نفسك هتتغيري، وتتمسكي بحمزة أضعاف تمسكه بيكِ.

****

الفصل السابع

"يا أحلى امراةً بين نساءِ الكونْ أحبيني
يا من أحببتك حتى احترق الحب احبيبني
إن كنتِ تريدين السكنة، أسكنتكِ في ضوء عيوني
حبك خارطتي، ما عادت خارطة العالم تعنيني"

-كانت تلك نغمات انتشرت في الممر بين غرف الأخوات الثلاثة، أبدعت ريم في اختيارها، فتسنى لحمزة أن يسمعها حين كان خارجًا من الغرفة، ابتسم بسخرية لمعرفته الحقيقة، وتزامن ذلك مع خروج حسام من غرفة ريم، فوقعت عيناه عليه ليجده متأنقًا للغاية، فأطلق صفيرًا عاليًا: إيه الشياكة دي؟ رايح فين كده؟ ده اللي يشوفك يقول عريس، أكيد إنت خارج مع حياة، أيوا يا عم يا بختك.

-لا، ونظر إليه والحزن يملأ عينيه، فتوقف حسام عن المزاح، وتنقل بنظراته بين حسام وبين غرفته والألم يقطر من ملامحه.

-ربت على كتف أخيه: خير، إن شاء الله كله هيبقى تمام.

-فتنهد بضيق ووجع: مش باين، أشوفك بعدين، سلام.

تحرك كل منهما باتجاهٍ عكس الآخر، فهنالك من يتلهف للوصول إلى حيثما ترك قلبه، والآخر ترك قلبه عندها ورحل، علها تدرك أنه هو البداية والنهاية.

دلف حسام إلى غرفته فوجد إضاءة خافتة، دار بعينيه في أنحاء الغرفة فلم يجدها، لكن عطرها المميز كان يفوح وينتشر من حوله في كل مكان، فانشرح صدره وأخبره أنها هنا، انتبه على حركة خفيفة من خلفه، ففطن بأنها تقف خلف الباب، ليست مختبئة منه، إنما هو الخجل الذي تتمتع به، ولن تتخلى عنه، خجلها ذلك الذي يميزها عن الأخريات، لقد رأى الكثير منهن، لكنها هي وحدها من استطاعت أن تسرق فؤاده وتأسر روحه، بطفولتها وعفويتها وهدوئها الذي يمتص غضبه، لم يزد عليها حتى لا تخجل أكثر، فتوجه نحو الفراش وجلس عليه، وهمس باسمها وكأنه ترياق شفاء لكل شيء يؤذيه في الحياة: حور!

نداء من ثلاثة حروف، فيه دواء لكل داءٍ، ما عدا الخجل الذي يزيد شوقه ويجعله أضعافًا، تحركت بخطى ثقيلة في اتجاهه، تسحب بيدها وتقبض على ما ترتديه من السندس والإستبرق الأخضر، لون وجهها مخضب بحمرة الخجل، حين تراها يخيل إليك كأنها حورية من أهل الجنة تقف أمامه، لم يصدق ما تراه عيناه حينما دارت حول نفسها كطفلةٍ في العاشرة من عمرها، تحاول أن تثني خجلها وخوفها جانبًا تجاه معشوقها وزوجها، وتتحلى ببعض الجرأة للمُضي قدمًا بحياتهما الزوجية، انحنى على قدمٍ واحدة أمامها؛

ممسكًا بيدها مقبلًا إياها، ناظرًا إليها بحب وكأنه يحتضنها بعينيه، ألقى على مسامعها من الكلام ما يذهب العقول دون شرب الخمر، ويهوي بالقلوب إلى قاع جبلٍ عالٍ.

تمنت "حور" لو تستطيع الاختفاء عن ناظريه، لقد أشعل الجمر بوجهها، وخرج قلبها من بين ضلوعها، لم تتحمل كثيرًا وهو أيضًا، احتضنها ماحيًا ستار الخجل ذلك، ليحل محله سكينة وهدوء داخلها، وداخل قلبه الذي أصيب باختيار معشوقته؛ ليبدأ حياة زوجية سعيدة، وعلاقة قائمة على أسس دينية صحيحة.

"عندما تنتابك مشاعر محددة لا تقهرها، وتحبسها في أعماقك، دعها تخرج فلا شيء أسوأ وأثقل من مشاعر تخرج متأخرة في غير محلها، ابكِ في اللحظة المناسبة، ابسط ذراعيك للفرح حين يأتي، عبر عما تريد، اصمت في الوقت المحدد للصمت، وانفجر غضبًا حينما تحس بالحاجة لذلك، واندم على ما يستحق، عدا أن تكون متأخرًا".

....

تنهيدة تتلوها أخرى، خرجت من صدر ريهام وباتت أنفاسها تعلو وتهبط من مرارة الذكريات، وتمر أمامها كشريط عرض سينمائي فتغمض عينيها بشدة، حتى تتلاشى من ذاكرتها، بدأ جسدها يرتعش ويخيل إليك حين تراها وكأنها تسير بالخارج في ليلة شتاء شديدة البرودة، هبط قلب حياة خوفًا عليها، فقامت مسرعة وتحركت من مكانها، واحتضنتها بحنو بالغ

حتى تطمئن، وأخذت تربت على كتفيها، وانقلب الوضع وكأن الابنة هي من تحتضن والداتها؛ حتى استكانت بين ذراعيها، وبعد أن هدأت قليلًا، استطردت حديثها: أنا أصلًا أهلي من الريف، بس خالتي كانت متجوزة في اسكندرية، مكانتش بتخلف وكانت بتحبنا أنا وأختي جدًا واعتبرتنا بناتها، بس هي اختارت تاخد أختي تعيش معاها، علشان جوزها كان مسافر وهي لوحدها، كنت بحس بالفرق بيني وبين أختي لما كانت بتيجي تزورنا، عارفة إنها مكانتش تقصد إنها تبين إنها أعلى أو أحسن مني، بس كنت بغير منها!

تفجر ينبوع من الدموع من عيني "ريهام" لدرجة أنها تناثرت على ملابس حياة، وشددت على احتضان حياة لها، كما لو كانت طفلة في العاشرة تختبئ بحضن والدتها، وليس امرأة تجاوز عمرها الخمسين عامًا.

-ترقرقت دموع حياة، وانحنت برأسها فوق رأس ريهام مقبلة إياها، وتخبرها بعطفٍ بالغٍ: كملي أنا سمعاكِ.

-بللت شفتيها بلسانها، فقد بدأت تشعر بأنه قد جفّ ريقها، ومسحت دموعها بظهر كف يدها، وأردفت بشجنٍ، وذكريات عمر مضى، يضاعف عمر "حياة": أنا مش بكرهها يا حياة، أنا كرهت العيشة اللي كنت عايشاها، كرهت إنها تكون أحسن مني، كنت بتمنى أكون معاها، أو أكون أنا مكانها، ولكني أصريت وذاكرت وتعبت، ودخلت كلية تجارة في القاهرة، بس برضه كنت دايمًا مختلفة عن أهل القاهرة، كنت بكره البنات اللي بيبصولي من فوق، أول ما شفت شريف كان بالنسبالي فرصة كبيرة،

يمكن محبتهوش في الأول، بس بعد كده والله حبيته، بس معرفتش أبين مكانش ينفع، كان لازم أفضل بنفس القوة، وميبقاش في نقطة ضعف واحدة في حياتي، أنا طول عمري قوية! ورفعت بصرها نحو حياة، بعيونٍ دامعة حمراء، وابتعدت بنفسها قليلًا عن حضن حياة، وجففت دموعها، وأردفت قائلة: عرفتي ليه بقا إنتي بتفكريني بنفسي، بس أنا ليا عندك طلب.

-نظرت لها حياة نظرة دهشة، وهي تضم حاجبيها باستفهام؟!

-خلي بالك من حمزة، هو فاهم إني مش بحبه، وهزت رأسها بالنفي يمينًا ويسارًا: الحقيقة إني خلفته في وقت أنا مكنتش لسه اتصالحت فيه مع نفسي، ومعرفتش أسيطر على انفعالاتي وعواطفي، حاجات كتير راحت مني، ومستمتعتش بحياتي، بس أكيد لسه مفاتش الأوان يا حياة، ووضعت يدها فوق يديها، وبنبرة بالغة العطف والحنو: إيدي في إيدك نرجع الحبّ والدفا للبيت دا، وقبل أن تغادر الغرفة استدرات تجاها: الحب اللي في عنين ابني ليكي، خلاني أحكيلك حاجات جوايا محدش يعرفها، بس لو حمزة سامحني، شريف كمان هيسامحني، اللي راح من العمر أكتر من اللي جاي.

....

"من السهل أن نخطئ، وسهلٌ أيضًا أن ينكسر الزجاج، لكن من الصعب أن يعود كما كان، أو يستعيد وضعه الحقيقي، لكن علينا أن نستغل تلك القطع الصغيرة؛ في خلق لوحة أفضل".

توقف القطار في المحطة، وتوقفت معه ليال وقامت بضم ابنتها إلى صدرها، وصوتها يتهدج وبالكاد يخرج مهزوزًا من أعماقها:

-دي المحطة اللي بنزل فيها، أشوفك مرة تانية يا عمر، وهمست بصوتٍ يكاد يكون مسموعًا: يا عالم من يجمعنا تاني، وقبل أن تنهي كلماتها، رفع عمر حقيبته فوق كتفه، وهب واقفًا إلى جوارها:

-يلا بينا.

ألجمتها الصدمة من رد فعله، فتحركت بجواره دون أن تتحدث، هبط كلاهما من القطار، وبدأ القطار يطلق صفيره، وتحرك بضعة أمتار ببطءٍ قبل أن يزيد من سرعته، وظل عمر يتنقل بناظره بين القطار وبين ليال نظرات مليئة بالحزن، وهو يتساءل بينه وبين نفسه:

-يا ترى يا حِلمي البعيد، سيبتك في القطر؟ ولا نزلت معايا هنا؟

بدأ القطار يزيد من سرعته أكثر وأكثر، ويكأنه يسرق حلم عمر، ولكن هناك واجب أكبر من الحلم عليه أن يحفظه ويصونه، انتبه عمر إلى اللوحة المدون عليها اسم المحطة، علم أنه بمحافظة الشرقية، فلم يتعجب كثيرًا، وتسير ليال من أمامه، وهو يتبعها من خلفها حتى وصلا إلى موقف الحافلات، واستقلا الحافلة، وبعض مرور نصف الساعة، أخبرته ليال أنه المكان المنشود للنزول، نزلا سويًا ووقفت ليال مترددة أمام السوق، تود أن تقوم بشراء بعض الأغراض للطعام، فقط ما يكفي لإطعام طفلتها، ولكنها ترددت كثيرًا ولم تعرف ماذا تقول، إلا إنه شعر بها فباردها قائلًا:

-تعالي نروح مكان عام نتغدى فيه، وتكمليلي باقي الحكاية وإيه اللي حصلك، أنا مش هسيبك غير لما أعرف كل حاجة، أخفضت رأسها إلى الأرض، كما لو كانت فقدت القدرة على الكلام، ولا تدري ماذا تقول!

فقام عمر بإعلاء صوته قليلًا ليجذب انتباها، فأومأت برأسها إيجابًا، وبدأ في التحرك والتوجه سويًا لأقرب مكان، حتى عثرا على مطعمًا مناسبًا، دلفا إليه وجلسا في أقرب مكان، وما زالت تحتضن ابنتها، لاحظت هي أنه يثبت ناظره عليها، فسمحت لنفسها بالكلام:

-شبهي، صح؟

-ارتسمت على شفتيه ابتسامة لا إرادية: تحسيها إنتي وإنتي صغيرة، ثم تذكر بغتة ما كانت تخبره به ليال فقضم الكلام، وتلاشت الابتسامة تدريجيًا، وعاد العبوث يحتل ملامحه: كملي اللي حصل.

-شردت بنظرها قليًلا واعتلت الحسرة وجهها وبدأت قطرات من الدموع تتجمع وتنساب على وجنتيها: آخر يوم ليا في البلد، اليوم اللي خرجت فيه للمدرسة ورحت قابلت الشخص اللي حكتلك عنه ومرجعتش تاني بعدها، اتحركت معاه وروحنا للمكان اللي قال إننا هنتجوز فيه، وقفت جنبه على باب الشقة، وفجأة حسيت بالخوف بيدب جوايا، مش عارفة إيه اللي حصللي، حسيت برعشة في كل جسمي، ومبقتش قادرة أدخل، ولقيت نفسي برجع لورا وبدأت أعيط وكأني بصرخ، وفجأة لاقيته حط إيده على بُقي، وبيقول لي اسكتي الناس هتسمع بينا، فبدأت أبعد إيده عني

ومعرفتش، ولقيته بيشدني ويدخلني الشقة غصب عني، مر وقت طويل وأنا بحاول أهرب وهو بيحاول يشدني لجوا، وفجأة ظهر راجل كبير في السن كان نازل على السلم وشاف كل اللي حصل، وخلصني من إيده بأعجوبة، وفضل يسمعني كلام وحش جدًا ويغلط فيا وقال لي أبشع الألفاظ، وقال لي يا رخيصة، وسبني أنا وأهلي، وفضل يخوفني ويقول لي وريني بقى هترجعي إزاي تاني لأهلك بعد ما هربتِ منهم، وكل ده والعجوز واقف يسمع، وقتها حسيت إني عريانة، ومبقتش شايفة قدامي، الدنيا دارت بيّ وأغمى عليّ، ولما فقت لقيت الراجل الكبير ده قاعد جنبي، وبيقول لي حمد الله على السلامة.

****

الفصل الثامن

إنها الحياة يا صديقي، لا تأمنها، ولا تأمنيه، فإما أسود أو خرفان.
لا تأمن...

دخلت ريهام إلى غرفتها مسرعة فوجدت شريف مضطجعًا في أحد زوايا الفراش ويطالع أحد الكتب، رفع بصره مسترقًا نظرة سريعة إليها، ثم عاود النظر إلى الكتاب مرة ثانية، ترددت كثيرًا ما بين الحديث أو التوجه إلى النوم مباشرة، ولكنها آثرت الحل الثاني، فذهبت لاستبدال ملابسها، وعادت إليه لتتخذ زاوية الفراش الأخرى ملجًا لها، قامت بتخفيف الإضاءة قليلًا، وتزاحمت في صدرها العديد من الأفكار، وشعرت بأن نظرة شريف لها مختلفة كليًا عن ذي قبل، وباتت لا تدري لماذا يعتريها كل ذلك القلق، فإنها ليست أول مرة يتحدثان، ولكن تلك المرة مختلفة كليًا، هي واثقة من ذلك، مرت حوالي خمس دقائق قبل أن تقوم بإشعال الضوء تارة أخرى، فاعتدلت بجلستها ونطقت بتلعثم:

-أنا عايزة أتكلم معاك!

-ظل على وضعه، وما زال صامتًا لا يعطي لها اهتمامًا.

-تابعت حديثها بإصرار أكبر: أنا مش وحشة، ولا بكرههم، أنا خايفة اللي حصل بيننا زمان يتكرر تاني، أنا نفسي أصلح اللي عملته زمان، ويا ريتك

تفهمني وتقدر، وتساعدني علشان أقدر أصلح كل اللي فاتنا، في حاجات كتير أنا عملتها غلط، وعارفة كويس إنك اتحملتني بكرم بالغ وكتير جدًا، وسامحتني أكتر، وحاولت معايا كتير إني أصلح من نفسي وأكون أحسن، لكن والله غصب عني، أنا وقتها كنت لسه جاية من البلد وكنت بعاني من حاجات كتير وجعتني في حياتي قبلك، وكان جوايا ضعف قد الكون، وكنت فاكرة إن لو ظهرت حقيقة مشاعري هكون ضعيفة، وإن القوة اللي كنت بتظاهر بيها دايمًا مجرد قناع، علشان خوفي من إني أتظلم أو أتجرح تاني، وهمست برجاء بالغ من القلب، وقد بات واضحًا بنبرات صوتها المنكسرة: سامحني وأنا هتغير زي ما أنتم عايزين، وإن شاء الله أصلح اللي حصل قبل فوات الأوان.

وحين انتهت من كل كلامها، أغلق شريف الكتاب الذي كان بين يديه وهمّ بالرحيل من الغرفة، وتوجه خارجًا، ثم قام بإغلاق الباب من خلفه، ابتسمت بمرارة والألم يعتصر قلبها، ورفعت يديها إلى السماء تناجي الله عز وجل، وتتضرع إليه، بأن يحمي أسرتها، ويجمع شملهم مرة أخرى من جديد، ويصلح ذات بينهم، وأن يرزق أولادها الذرية الصالحة، واسترجعت وعادت بذكرياتها إلى الوراء مرةً أخرى، إلى ما قبل ذلك بسنوات عدة، ذلك العمر الذي أرهقها ولم تستطع حصره، وتعبت من كثرة عده: هتندمي إنك هتبيعي حبي علشان الفلوس، وبكرة تشوفي!

-وهو أنا كنت من إمتى بحبك؟!

-كان عندي أمل إنك تحبيني يا ريهام!

-وأفضل عايشة هنا في الريف! مستحيل أقبل إني أكمل باقي عمري هنا، أنا لازم أبني حياة أحسن لنفسي، انساني أحسن أنا مش هنفعك، شوف واحدة غيري تريحك وترتاح معاها وتقبل إنها تكمل حياتها جنبك هنا في البلد دي، أنا خلاص أخدت قراري، وتذكرت كلماته الأخيرة إليها قبل أن ترحل تاركة إياه حين باغتها بجملة واحدة: يا رب تحققي السعادة اللي بتحلمي بيها، وأشوفك مرتاحة دايمًا مرتاحة.

أفاقت من شرودها وعادت من رحلة ذاكرتها على تلك الكلمات، وهي تردد في نفسها، ربما دعوته الصادقة هي ما أفادتها، لأنه حقًا كان صادقًا في مشاعره، ولكن الغلبة دائمًا للنصيب، ولعبة القدر تلك التي لا تتوقف.

....

"لَمْ أُحِبَّ الصَّيْد يومًا، لَكِن حين أحببتك سقطت في عشقه، حَتَّى أتعلم المعنى الحقيقي لأن أصبر عَلَى مَكْرِك يا صغيرتي وَنِصْفِي الْآخَر".

خرج حمزة من السرايا وهو لا يدري أي وجهة سوف يوليها، وضع إحدى يديه في جيبه، والأخرى يحمل بها الهاتف، وظل يسير حتى رفع عينه، وأرسل نظره إلى السماء؛ فوجد القمر بدرًا مكتملًا، إنها ليلة نصف الشهر، يا لجمال القمر وهو تحيطه نجمات صغيرة وكأنها ترسم عقدًا مضيئًا من

حوله! رأى وجه حياة يملأ القمر، على حين غفلة؛ يبدو وكأنه قد ضغط زرًا في هاتفه عن طريق الخطأ، ليرتفع صوت عبد الحليم وهو يشدو:

"كل حاجة فكرت فيها في لحظة واحدة، ردت عليها بنظرة حلوة من عنيها، الأمان في عنيها"

وأي عينين تلكما، فإنهما تملكان حنانًا لا مثيل له، وقوة مثل الصقر، وطفولة مختبئة بداخلها يراها هو فقط، إنها حياته وحياة قلبه وعمره، نظر إلى التُرعة بمحاذاة الطريق الترابي، فتذكر بعض الأشخاص وهم يرمون نهارًا بسناراتهم في المياه ويظلون بالساعات يتابعون الأسماك وينتظرون أن تلتقط ذلك الطعم، إنه يكره الصيد للغاية، ولكن هرب من حياة بعض الوقت لتفتقده ولو قليلًا، سيحبه من الآن فصاعدًا، ويتعلم فنونه ولو القليل منها.

على بعد خطوات سمع صوت ينادي باسمه، فالتفت مستديرًا للخلف ليجد والده أمام عينيه، فتوقف قليلًا عن السير، حتى وصل إليه، وسارا سويًا دون حديث لوقت ليس بالقليل، فهناك مشاعر متضاربة ومختلطة، ومزيج من الأفكار التي تشغل عقل وبال كل منهما، فتساءل شريف بينه وبين نفسه، عما إذا كان يمكنه التحدث إلى ولده، وإفراغ ما بداخله، عله يستريح ولو قليلًا، من تلك الهموم المتلاطمة والتي تجثم فوق صدره، فقام بهز رأسه وكأنه يتحدث إلى أحدهما، وبابتسامة ساخرة أخذ يتحدث بصوتٍ مسموع

قليلًا: يعني بدل ما تهون عليه، عايزه هو اللي يسمعك، وتاخد رأيه، الظاهر إنك خرفت يا شريف.

-ولكن بالفعل قد سمعه حمزة وشعر بما يجول بخاطره: وإيه يمنع يا بابا؟! دا أنت لسه قايل من شوية إني سندك وعكازك.

-لم يدر بخلد شريف أن صوته كان مسموعًا، ولكنه آثر التحدث إلى ولده؛ لكي يزيح عن صدره تلك الأعباء، التي ظل يحملها طيلة حياته: هحيكلك يا بني.

وبسرعة شرع شريف بسرد كافة التفاصيل كاملة لولده، وقص عليه ذكريات من عمر مضى، ومشاعر مكبوتة داخله، لم تعرف يومًا طريقها إلى النور، فهناك ألم ينخر بقلبه من أفعال والدته، ولكنه ونظرًا لحبه الشديد لها؛ تغاضى عن كل شيء، ولكن بسبب وجوده هو وإخوته، وخاصةً "ريم" أبى أن يجعل الفراق هو مصير تلك العلاقة التي كانت تثقل كاهله كثيرًا.

تفهم حمزة وضع والده، وقام بالتربيت على كتفه، وفهم ما يرمي إليه والده، وهو أنه يحاول أن يتحلى بالصبر على حياة، لعل الأيام ترمم تلك الشروخ.

....

"اقتحمت دنياي دون سبب، وكلما سألتك كان جوابك، بأن تاهت روحي ولم أجدها، فلما عَثرتُ عليكِ عادت لي روحي ثانيةً، فالرّوح للرّوح سكنًا، وإني سكنتُ إليكِ قبل أن ألقاكِ"

حضر النادل وقام بتقديم الطعام، وبدأت ليال تلوك بعض الطعام بفمها، وإطعام طفلتها تحت نظرات "عمر"، التي لم تبرحها هي والفتاة الصغيرة:

ـ وبعدين حصل إيه بعد كده؟ والبنت دي بنت مين؟

هدأت وتيرة صوتها قليلًا، وبدأت تشعر بالارتياح؛ لإزاحة هم ثقيل يجثم على قلبها، وقد كاد أن يقتلها:

ـ الراجل ده كان كريم معايا جدًا، وحكيت له كل اللي حصل، قال تعالي وأرجعك لأهلك.

-فقاطعها متسائلًا والدهشة تعلو تقاسيم وجهه: ليه مرجعتيش؟

-أنا سيبت فضيحة لأهلي ومشيت، لو كنت رجعت كانوا هيستقبلوني بالأحضان يعني، مؤكد كانوا قتلوني.

-وبدأ الغضب يجتاح صدره: يعني عارفة إن اللي عملتيه فضيحة وعار لأهلك؟! متعرفيش هم عاشوا إزاي، ولا إخواتك، والناس مبترحمش، مفكرتيش غير في نفسك وبس، وحتى أنا؟

-قامت بقضم اللقمة التي كانت بفمها، ووضعت بقيتها بالطبق، وحمدت الله علانيةً، وضمت صغيرتها لصدرها بعد أن بدأ النعاس يداعب عينيها، بعد أن امتلأت معدتها وهدأ أنينها، على عكس والدتها، فهناك غصة تركت بحلقها مرارة الحديث، والماضي الذي يلاحقها بأي أرض حلت ويلحق عارًا بابنتها مستقبلًا: خليك عارف إن الأصل غلاب، ولما أنا غلطت مرة وربنا سترها معايا، كان لازم أخد بالي كويس، أنا فكرت كتير أرجع لأهلي، بس

كنت عايزة جوزي يكون معايا، وحد يقف ويدافع عني؛ حتى وأنا غلطانة، عشان كده مقدرتش أرجع ليهم.

-وأنتِ شايفة إنك كده اللي عملتيه هو الصح؟! فين جوزك؟

-عادت بذاكرتها قليلًا إلى الوراء قبل خمس سنوات حينما أحضر لها الحاج محمود عريسًا:

-اتجوزيه يا بنتي، ده السواق بتاعي، وراجل أمين وهيحفظك ويصونك، وأنا أعرفه وأعرف أهله كويس.

-بس ممكن يعايرني عشان مليش أهل، ويجي عليا ويظلمني، كان عقلي فين وقتها لما سمعت كلامه ومشيت ورا وسوسته ليا، أنا اللي عملت ده كله في نفسي.

-فاقترب منها وربت على كتفها بحنو: هاخد عليه عهد زي عهد الدم، بكل اللي تحبيه، ولما تتجوزوا ارجعي لأهلك، وأنا هاجي معاكم.

فعادت من ذكرياتها، وفاضت دموعها أكثر مما سبق، فنهرها عمر بحدة:

-أنتِ بتنقطيني بالكلام ليه، احكي متخافيش، أرجوكِ طمنيني.

-فانهارت أكتر وبدأت تسرد عليه كل ما حدث: اتجوزنا شهر وقررنا نرجع، وقبل يوم من الرجوع عمل حادثة هو والحاج محمود، وماتوا! ولما فقت من الصدمة عرفت إني حامل، أهله طردوني وهانوني جامد وحاجات كتير حصلت منهم، وفجأة لقيت نفسي لوحدي، لكن ربنا كريم ومش بيسيب

حد، الناس عطفت عليا لحد ما خلفت، واهو زي ما أنت شايف، بربي بنتي.

-بضحك تهكم وسخرية: وأنتِ بقى عايزاني أصدق الفيلم ده، الحكاية دي تحكيها لعيل صغير، يمكن يصدقك، لكن أنا لا! وهب واقفًا، واستعد للرحيل، ومد يده إليها وجذبها بعنف: من النهار ده متمشيش من دماغك، اصبري لما نشوف الدنيا واخدانا لغاية فين، وأخرج بعض النقود من محفظته، ووضعها على الطاولة، وسار بمحاذاتها والطفلة تسكن أحضانها.

بعد وقت قليل من السير، توجب عليهما ركوب إحدى وسائل النقل العام، انحشر بصحبتها داخل الميكروباص للوصول إلى بيتها، جلس إلى جوارها وهي محتضنة طفلتها، وهو يضم إليه حقيبته، وبعد قرابة خمسة عشر دقيقة، وصلا إلى المكان المراد، فنزلا سويًا، وباغتته هي بسؤالها: هشوفك تاني؟

-دون أن ينظر إليها، وهو يتلفت بعينيه إلى الحارة التي تقطنها، ولكنه أجابها بكلماتٍ صادقة: مش هسيبك أبدًا، من النهاردة أنتِ بقيتِ أمانة معايا، والأمانة بتبقى حمل فوق كتاف صاحبها، ادخلي شقتك مش هينفع أدخل معاكي، ولكن قبل أن يرحل ويتركها، تذكر أنه كيف سيتواصل معها: أنتِ معاكي موبايل؟

-فأخرجت هاتفها الصغير: معايا ده!

-فالتقطه بخفة، ونسخ الرقم لديه ودون لها رقمه: أنا سجلتلك رقمي، لو عوزتي أي حاجة كلميني.

فتركته واستدارت لتدلف إلى داخل شقتها، وبعد أن سارت خطوتين، سمعت صوته يحدثها:

-متخرجيش من البيت أبدًا بدون علمي، وهتلاقيني قريب منك!

التفتت إليه بوجه مظلم وعابس: هترجعني لأهلي؟

-تنهد بصوتٍ عالٍ، وكاد أن يقترب منها، ويقوم بتكسير عظامها، ويدكها دكًا، ولكنه لا يستطيع: مش قلتي لازم لما ترجعي يبقى معاكي جوزك، وحد يقف يدافع عنك قدام أهلك، اطلعي دلوقتي، دا كلام سابق لأوانه.

وصعدت إلى المبنى، وظل ينظر إليها ويتبع أثرها حتى اختفت عن ناظره، فأعاد وضع الحقيبة فوق ظهره مرةً أخرى، وبدا التجول في الشوارع، باحثًا عن سكنٍ له بالقرب من المكان الذي تقيم به، فهو لا يريد تركها أبدًا، وقف حائرًا لا يدري ما يمكنه فعله، لكنه وجد يدًا قوية فوق كتفه الأيسر، وصوت خشن أجش:

أنت مين؟ بقالك ساعة واقف تلف هنا، ورايح جاي، قول لي إنت مين، وعايز إيه؟ ولا أشوف لي صرفة معاك؟

أدار عمر وجهه، ونظر بقوة لعيني الرجل، نظرة أسد لا يهاب صفعاته على كتفه، ولا صوته القوي ذلك، فوجد رجلًا يبدو أنه فاق الخمسين من عمره،

لكن له هيبة وحضورٌ قوي، فأجابه: أنا غريب عن المنطقة وبدور على سكن، ده باختصار شديد، يا ترى تعرف مكان ولا تدلني على حد!

-الشارع ده كله أهل ومعارف، إيه نزلك المكان ده؟ وليه عايز هنا بالذات؟

-رجلي دبت هنا، والظاهر ربنا كاتب ليا أكل لقمة عيش في البلد دي، ودي أرزاق يا حاج، ملناش فيها.

-نظر بهدوء وخفف من حدته: أنت منين؟ شكلك باين عليه أنك ابن ناس ومتربي.

-من أرض الله الواسعة، كنت قاصد مكان، وربنا بعتني لمكان تاني بعد عمر، علشان أمانة حملها تقيل أوي، قال جملته تلك وهو ينظر حيث تسكن ليال، فلاحظ الرجل نظراته:

فمد الرجل يده له مصافحًا إياه: اسمي "منصور حسنين" مقاول، اسم الكريم إيه؟

-عمر زناتي، بشتغل نقاش

-أشار الرجل إلى حيث تسكن ليال: في أوضة فوق سطوح البيت ده، ده بيتي على فكرة، أنا صاحبه وساكن في الدور التاني.

-معلش يا حاج، لو في مكان تاني غير البيت ده بالذات!

-تعجب الرجل كثيرًا من أمره، فقبل قليل لاحظ دخوله إلى الشارع بصحبة ليال وابنتها، وبرغم أنه يبحث عن سكن، إلا أنه يرفض نفس العقار التي تقطن فيه، سولت إليه نفسه أن هذا العُمَر يخبئ الكثير

والكثير، فبرغم أنه لم يرتقِ في التعليم إلى مراكز عليا، إلا أن خبرة الحياة أكبر بكثير، فشعره الأبيض ليس عمرًا وإنما تجارب وخبرات اكتسبها من حياة السوق، تنحنح لإجلاء صوته: تعال اقعد معايا على القهوة نتكلم شوية، نشرب شاي وندردش.

-امتثل عمر لكلام الرجل الوقور فور سماعه، وتوجها معًا إلى مقهى قريب من منزله.

****

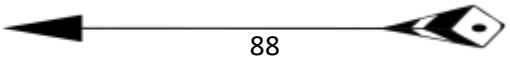

الفصل التاسع

"هناك من يعشقك دون شروط، ويكون شرطه الوحيد هو أن تحفظ قلبه من الغدر، فليس هناك أمر من ألم القلوب".

-مع أذان الفجر قرر حمزة ووالده الذهاب إلى أقرب مسجد لأداء فريضة الصلاة، ومن ثم العودة إلى السرايا، وصلا إلى مشارف البوابة الخارجية، رفع بصره إلى الأعلى فوجدها تقف في شرفتها، رغم الضوء الخافت والمسافة البعيدة؛ إلا أن قلبه يكاد يُقسم برؤية عينيها، الدموع تغيم بداخلهما، ويصحبها القلق، ولكنها فور رؤيتهما دلفت إلى الغرفة وأغلقت الباب عليها.

دغدغ نسيم الفجر أوصاله، ورؤيتها جعلت قلبه مسرورًا، فمازالت متعلقة به وبوجوده في حياتها، بل وتهتم لأمره، لكنه همس لنفسه: مهلًا حبيبتي وزوجتي، مازال الوقت مبكرًا للعفو عنكِ.

دخل إلى السرايا فوجد والدته تقف أمامهما والقلق يعتريها: اتأخرتوا ليه يا حمزة، في إيه يا شريف؟

-توجه شريف إلى الغرفة مباشرةً، ولم يعرها أي انتباه، ونطق حمزة بعفوية: أنتِ غيرانة عليه يا ماما ولا إيه؟

-ولكنها داهمته وبدون أي مقدمات بسؤال يعتصر قلبها: أنت بتحبني يا حمزة؟!

-رغم سهولة السؤال، إلا أنه يحتاج لتفكيرٍ عميق، فجلست وسحبت يد ولدها للجلوس أمامها: سامحني يا حمزة، أنا عارفة إني جيت عليك كتير وظلمتك، يمكن أنت أكتر واحد في إخواتك حاسة ناحيته بالذنب، إني مكنتش بعاملك كويس وبحاسبك على ذنب مش ذنبك، بس كنت صغيرة، وفي حاجات كتير أنت متعرفهاش عني، مش ده وقت الحكي فيها، بس اللي بطلبه منك إنك تصبر على مراتك، هي بتحبك والله، بس الزمن بيعيد نفسه!

-لم يفهم حمزة كلام والدته كاملًا، لكنه ابتسم في وجهها بِحُبٍ بالغ، وطبع قبلة حانية على جبينها، واستأذن منها للذهاب إلى النوم: تصبحي على خير يا ماما.

-صعد حمزة وترك والدته، وهي تردد: اللّٰهُمَّ حظًا أفضل، ومغفرة من عندك.

وحين وصل حمزة إلى الغرفة، وجد حياة قد استغرقت في نومها، فداعب النوم جفونه وبدأ يشعر بثقليهما وغلب القلب العقل وقوانين التفكير، تمدد إلى جوارها واضعًا يده فوق كتفها، حتى في أصعب الأوقات يحتاج إلى حضنها، وقلبها الذي شب على براعم حبها بقلبه.

....

لم يزر النوم عينيه، حتى أول ساعات الصباح، واستيقظ بنشاط كعادته، فقام بتفقد هاتفه متلهفًا لقراءة بعض التغريدات بحسابها أو المنشورات التي قامت بها، فلم يجد اسمها "ريم رشوان"، وجال بخاطره، ربما وضعته على قائمة الحظر، مؤكد أنها لن تفعلها، فهو متيقن من إحساسه الداخلي، بعد وقت من البحث تملكه الجنون، وبلحظة تذكر حساب أشقائها، فقام بفتحه، ولأنه يحفظ تعليقاتها عن ظهر قلب على صورهم، فابتسم ملء وجهه، وقد غيرت اسمها إلى "جنة في وادي الريان"، حملق في الاسم وقتًا طويلًا، ثم أغلق الهاتف، وعزم على الحديث مع والدها هذا الصباح.

بعض وقت حضر ريان وجد والديه يتسامران، وعند حضوره توقفا عن الحديث، ابتسم وفهم فيما يتحدثان:

صباح الخير، بدون مقدمات، أنا عايز أتجوز.

-هم والداه للحديث في حين رفعت والدته، صوتها بإطلاق الزغاريد، ووقفت إلى جواره: هي يا ريان، صح؟ أنا عارفة إن عينك منها من زمان.

-هي يا أم ريان، بس إيه رأيك فيها؟

-ربنا يتمم على خير يا بني فرحت قلبي، عقبال ما أشيل عيالك يا رب يا حبيبي، برغم حديث والدته، إلا أنه ينظر إلى والده، الذي ما زال صامتًا إلى أن نطق أخيرًا: خلاص، جوزتِ ابنك يا "سمية"، وعايزة تشيلي عياله، ومش ضروري موافقة أبوه!

-كشرت سمية وجهها: أهو أنت كده يا أبو ريان، دايمًا واقفلي على الكلمة.

-لم يجد ريان مفرًا من مواجهة أبيه بالحديث الواضح عن الفتاة التي يريدها، رغم إحساس والده وتأكده ممن تكون هي: بابا، أنا بعد إذنك عايز أتجوز ريم، أخت حسام وحمزة.

ما زال والده ينظر إليه بصمتٍ مطبق ولا يفهم ريان ما يدور بعقله: إيه رأي حضرتك يا بابا؟

-أنا مش موافق يا ريان، أنا عايزك تفكر تاني كويس، دول مش مننا يا بني، ولا عيشتهم زينا!

-تجلس سمية بجوار زوجها، وتضع يدها فوق يده، لينظر إليها: سنين أنت عارف وساكت، جاي يوم ما يتكلم، ويقول إنه عايزها، تقول مش موافق؟

-لو كان بيتعذب زمان شوية، دلوقتي هيزيد عذابه أكتر برضه.

-كنت قوله من زمان، مش بعد العمر ده كله، أنت اللي لازم تفكر تاني يا أبو ريان مش ابنك.

-تجاهل ريان كلام والداته، وذلك الغيظ المصاحب لنظرات والده: حضرتك قول لي السبب!

-أطلقت "سمية" ضحكة حزينة، ووجهت حديثها إلى زوجها: لو تقدر قول له السبب الحقيقي، مش اللي أنت قلته، ولا هتقوله!

-أنتِ بتقولي إيه؟ مالك كده كلامك بيرمي على إيه؟

-ابتسمت باستهزاء، وبقلب زوجة يرى ويشعر جيدًا بما لا يراه الغير: خرفت بقول أي كلام، المهم متضيعش فرحة ابنك.

-نظر إليها وبركان الغضب يشتعل داخل عينيه: ليا معاكِ كلام تاني بعدين.

-تأهبت سمية لتخرج من الغرفة، تاركة الابن وأبوه، بعد أن ألقت عدة كلمات مبهمة، وتوجه "سمير" إلى ريان: هتعيش طول العمر حاسس بفرق إنها أعلى منك ماديًا، هتقدر تعملها فيلا زي اللي عايشة فيها؟ ولا تجيبلها عربية؟ ولا تسفرها بره؟ ولا هتعمل إيه ولا إيه؟ مش من توبنا يا بني، أي واحدة في الدنيا، إلا هي يا ريان.

-مش زي أمها متقلقش!

فاجأه ذلك الرد وصمت مطبق قاتم سيطر عليه، والفزع بادٍ على وجهه، وعيون حادة تبحث عن مصدر ذلك الصوت الذي بعث بتلك الكلمات، كانت تلك كلمات سمية، التي خرجت منها ولكن صحبت بنزيف داخلي: دي بنت أصول، وبتحب هنا وعايشة هنا، أنت بس اللي متعرفهاش، ولا اتكلمت معاها، متعرفش يعني إيه ريم!

-توقف ريان عن الحديث وبعد برهة نطق والاستجداء يكسو حروفه: فكر شوية يا بابا بعد إذنك، أنا عمري ما هعمل حاجة غصب عنك، ولو فيها روحي وحياتي، أنت مثلي الأعلى يا بابا، عشان خاطري فكر تاني.

وسحب نفسه وترك الغرفة وغادر المنزل، وخرج بحثًا عن هواءٍ عليل، يمحى أثر الحزن، وربما آثار الأيام القادمة، التي لا يدرك حتى الآن كيف ستكون.

-وحين تأكد "سمير" من خروج ابنه، التفت إليها: بتلمحي على إيه بالكلام ده يا سمية، عايزة تقولي إنك عارفة إيه ومخبياه؟

-تأهبت للخروج من الغرفة قائلة: الماضي، يجي من تلاتين سنة وأكتر.

....

لاحظ الحاج "منصور" الإرهاق على وجه "عمر"، بدأ جسده يسترخي في بداية الحديث، ورغم شوق منصور لسماع ما يستعد عمر لسرده، إلا أنه آثر راحته أولًا، فالصباح سوف يأتي بنوره، ومعه الحكاية بأكملها:

ـ قوم يا عمر نروح عشان ترتاح، وبعدين نكمل كلامنا، بس قبل أي حاجة، أنت تعرف ليال؟

ـ تنهد بعمق، وزفر بألم بالغ: أيوا أعرفها، وعشان كده مش عايز اقعد في بيتك، يمكن قعدتنا تطول شوية، ومش عايز حد يجيب سيرتها، لحد ما ربنا يحلها.

-ماشي يا ابني، ربنا قادر يحلها، وأشار إلى منزل قريب من منزله الخاص به قائلًا: هكلم صاحب البيت ده، هو صاحبي وشريكي، ومش هيمانع إنك تقعد في بيته، الصبح هفوت عليك، شكلها كده لينا لقمة عيش سوا.

وبالفعل توجه عمر بصحبة منصور إلى العقار، وبعد مدة قصيرة خرج منصور، وترك عمر وحيدًا، فجلس فوق الفراش المتهالك قليلًا، واضعًا يديه فوق رأسه، محدثًا نفسه:

-ما العمل؟ أمانة ثقيلة، وعليّ حملها فوق عاتقي، واستغرق في التفكير قليلًا، إذا ما كان عليه أن يخبر أخاها ووالدها؟ أم يستمع إليها، وينتظر حتى ينفذ لها رغبتها بالعودة إلى أهلها بصحبة زوجها؟ ولكن، من هو زوجها؟ هل سيتزوجها؟

وعندما وصل إلى ذلك السؤال، خارت قواه وذهب في نومٍ عميق، أخيرًا انتهى اليوم الذي كان بدايته الأمل في المستقبل، ولكن الماضي ما زال يداهم حيات

****

الفصل العاشر

"حملٌ ثقيلٌ، لكن لا عليكِ يا ليال، فأنا أتقبله طالما أنتِ ذاك الحمل، كم قضيتُ من ليالٍ طويلة، وأنا احلم وأُمني نفسي بنظرة من عينيك"

حل الصباح وأشرقت شمسه على هذه الحارة البسيطة لتعلن عن يوم جديد لا أحد يعلم ما ينطوي عليه سوى الله، أصوات الناس وتحركهم ذهابًا وإيابًا، وتلك الجلبة التي تعطي شكلًا مميزًا لها، فكلٌّ منهم يسير صوب عمله راجيًا الله أن يرزقه ويطعمه ويبارك له في قوته.

استيقظت ليال بعد ليلة نوم طويلة، فلم تفكر في أي شيءٍ وبمجرد أن وضعت رأسها على وسادتها ذهبت في نومٍ عميقٍ، لقد كانت متعبة ولا تملك قدرة للتفكير وكل ما كان عليها أن ترتاح لكي تتمكن من مواجهة تلك الحياة القاسية، ولكن حينما أفاقت من نومها وحل نور الصباح على عينيها، جلب معه التفكير فيما حدث بينها وبين عمر في اليوم الماضي، تذكرت كل ما حدث معها منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي تركت فيه أسرتها مع ذلك الشخص الذي غدر بها وغرر بها وبأحلامها، حتى آخر كلمات ألقاها عمر عليها، قبل أن يتركها ويذهب، وظلت جملته الأخيرة يتردد صداها في أذنيها: لا تتحركي قيد أنملة دون أن تخبريني بذلك.

فهي الآن في حاجة ماسة للخروج، تريد أن تذهب للسوق لإحضار بعض المستلزمات الضرورية، وأن تحضر ما يلزم لإطعام طفلتها، وتساءلت بينها وبين نفسها: تُرى، هل عليها أن تحدثه الآن وتأخذ الإذن منه؟ فهي الآن لا تعرف كيف ستسير أمورها، وكيف سيمر اليوم! وهل سيتحدث معها؟ هل ما زال على عهده لها؟ أم من الممكن أن يتراجع ويتخلى عنها؟ الكثير من الأسئلة ظلت تطرق باب عقلها، وبعد صراعٍ طويلٍ من التفكير العميق، اختارت أن تقوم بالاتصال به لتخبره بأمر خروجها.

استيقظ عمر منتفضًا على صوت رنين هاتفه، لقد انتزعته تلك الرنات من كابوس كان يراوده أثناء نومه، وحين فتح عينيه، أغمضهما مرة أخرى من شدة الضوء، وحين تمكن من فتحهما التفت حوله، ليجد أن الضوء قد تغلغل إلى الغرفة ولكنه لم يشعر من شده تعبه، فقد غلبه النعاس في الليلة الماضية بعد عناء كبير وطول تفكير، لقد كان مستغرقًا في طيات الأفكار وبناتها، مسح على وجهه وكأنه ينفض كل تلك الأشياء عنه، وأمسك بهاتفه فوجد أن الاتصال قد انتهى، وانتهت معه تلك الدقات المزعجة، وحين نظر فيه وجد أنها كانت ليال هي من تحاول التحدث إليه، فقام بالضغط سريعًا على زر الاتصال مرة أخرى، فجاءه ردها سريعًا:

-أنت كويس؟ صحيتك معلش وشكلك كنت نايم، مالك فيك حاجة؟

-على مضضٍ من حديثها الذي يظهر جليًا قلقها عليه: كويس الحمد لله، أنتم كويسين؟

-كانت لهجته مقتضبة وحادة بعض الشيء، مما جعلها تعود أدراجها بالحديث، واكتفت بقول: بخير الحمد لله.

ظل الصمت فترة قليلة يخيم على حديثهما، فهو كان ما زال يفكر بأضغاث أحلامه، وما رآه من فزع شديد، بعد أن عادت للوجود بجواره، وخوفه عليها مما سوف يحدث، وهل سيخبر أهلها وهل سيقتلونها حين يعلمون الحقيقة، وفي نفس الوقت أخذها التفكير في طريقته الغريبة معها والحدة التي ملأت نبرات صوته وحديثه المقتضب ذلك....

-فقاطعت هي ذلك الصمت وبادرته بالحديث: عايزة أخرج أجيب فطار لينا أنا والبنت.

-أجابها بكلمة واحدة ومقتضبة للغاية مما أثر قلقها: ماشي، وأغلق الهاتف مسرعًا ووضعه إلى جواره، فرن الهاتف مرةً أخرى، التفت إليه فوجده الحاج "منصور" فرد عليه متلهفًا: أيوة، حاضر يا حاج، ربع ساعة وهكون عندك إن شاء الله، مع السلامة.

أغلق الهاتف ووضعه إلى جواره، ولكن ما زالت الأفكار تتصارع وتتقاتل مع بعضها بعضًا داخل عقله، وكأنه تحول إلى ساحة للقتال، ما العمل الآن؟ حث نفسه على النهوض، وحدث نفسه قائلًا: أشوف الشغل النهار ده، ووقتها ربنا يحلها.

....

من داخل غرفة "حور وحسام"

"حبيبي
حبيبي صباح الخير
صباحك ورد وفل ولوز
يالا اصحى غنت فيروز
الشمس طلعت يا زين، وأنت مغمض العينين
من تصحى تشرق على الدنيا مو شمس واحدة، لا شمسين
حبيبي صباح الخير"

بتلك الكلمات المحببة لقلبها الحنون البريء، استيقظت ملكة ومعشوقة السيف، كما يخبرها هو دائمًا، وبابتسامة عريضة على وجهها: صباحك ورد، وفل، ولوز.

-يا بنتي بلاش إغراءات الصباح دي.

-قهقهت بصوتٍ عالٍ، وكأنها طفلة تمرح بين الورد: أنا برد على صباحك.

وفجأة انقلبت وتغيرت تعابير وجهها، تعجب حسام كثيرًا لهذ التغيير المفاجئ الذي طرأ على ملامحها، وازداد تعجبه أكثر وأكثر، عندما وقفت وعقدت ذراعيها أمام صدرها، ثم حاوطت بهما خصرها بهما مرةً أخرى، وصاحت به عاليًا: حسام!

انتظرها لتكمل حديثها فقاطعت تعجبه: اديني فرصه أصحى أنا الأول، وأعملك مفاجأة! أنا كنت ضابطة المنبه، عشان أصحى وأجهز فطار وننزل سوا، وبدأت علامات الحزن تظهر على وجهها.

فاقترب منها وحاوطها بذراعيه وضمها بحنو إلى صدره: حبيبتي، أنا حبيت إنك ترتاحي، مفيش أي فرق بيننا، أنا بكون سعيد وأنا بصحى، وأشوف ملاكي نايم جنبي، أنتِ بكل جمالك ورقتك وهدوئك ده وأنتِ صاحية حاجة، ولما بتكوني نايمة بشوفك أميرة، زي الأميرة النائمة كده في أفلام الكرتون؟ عارفاها؟

ابتسمت بخجل، وحاولت ولأول مرة أن تتجرأ هي وتبادر بلمسه فاقتربت منه، وقبلته من وجنته، فأدار وجهه لها لكي تقبل الوجنة الأخرى، احمرت خجلًا كثيرًا، ولكنها وعدت نفسها بإزالة فارق الخجل بينهما، فهي تعلم جيدًا كيف أنه يخشى عليها كثيرًا من أي مكروه، ويفعل من أجلها الكثير، لذلك عليها المحاولة، وأردفت قائلة: بس أميري من حقه يصحى مرة على صوتي، ويفتح عينيه عليّ.

-ها، وإيه كمان، غلبتيني بالكلام يا أميرة، وصمت لحظات يفكر وكأنه تذكر شيئًا ما: بس قولي لي، إيه حكاية ننزل الشغل دي؟ أنتِ نازلة النهار ده؟

-بهدوء يناسب ملامحها البريئة: أنت وعدتني إني هنزل أشوف المكتب اللي هشتغل فيه، أنا عايزة أتابع أعماله بنفسي، وإنت تكون معايا.

-بنصف عينٍ وتنبيه مستتر بين حروفه: مينفعش غير معايا أصلًا.

-علقت ذراعها الأيمن بذراعه: يا سيدي عارفين، خلصنا بقا، ويلا عشان نخرج ومنتأخرش.

-فتقدمها بخطوة سريعة، وأثنى ظهره ولوح بيده في أناقة وحنان: lead's first.

-تبسمت بخجلٍ وسارت أمامه، ووثبت خطوة حتى تسير بمحاذاته وتأبطت ذراعه مرة أخرى، فأردف قائلًا بلهجة يملؤها الفخر: وراء كل عظيم امرأة.

-أشرق وجهها وقالت بفرحة: وأنت أفضل وأعظم زوج في الدنيا، لازم تكون أنت الأول.

-وضعها بجوار أيسره وتحت كتفه: هنا مكانك يا حبيبتي، وخرجا سويًا.

....

أغلقت ليال الهاتف، وهي تنهر نفسها بشدة، ورادوها الشعور بأنه قد تضرر منها منذ اليوم الأول، لقد تركها تخرج بمفردها وكانت تظن أنه سوف يمانع ويطل بمنها أن يصطحبها، ولكنه لم يعرض عليها أي مساعدة، وسمح لها بأن تفعل ما تشاء، فهل هذه هي النهاية إذًا، رفع بقلبها إلى عمد السماء ليلًا، ثم قام بسحقه بسابع أرض صباحًا، لقد أوشكت على الانهيار لولا أن قابلته، لقد تعبت من الركض بابنتها هنا وهناك، فرحت كثيرًا بالأمس، وظنت أنها ربما سترتاح مما أرهق قلبها، وأضاع زهرة شبابها، ولكن

هيهات، ابتسمت بمرارة لما يلحقها من خزي، ألبست ابنتها ملابسها بدموع مستترة تتساقط رغمًا عنها، حملت حالها وابنتها وخرجت من شقتها، فظهر الحاج منصور أمامها، وألقى الصباح عليها، ولكنها ردت عليه بتحفظٍ إلى حدٍ ما فسألها: مالك يا أم شهد؟

-ردت دون أن ترفع بصرها، وهي تشدد قبضتها على طفلتها: بخير يا حاج منصور.

-لاحظ منصور اختلاف نبرتها عن صباح أمس، لقد كانت دائمًا حزينة، لكن كانت هناك بسمة أمل تظهر معها، واليوم تبدو حزينة باكية، فأدرك أنّ هناك خطبًا ما مع عمر، وقبل أن تتحرك أسرع قائلًا: اطلعي للحاجة فوق يا أم شهد، كانت بتسأل عليكِ عايزاكِ.

-خير يا حاج منصور، هو في حاجة حصلت؟

-تبسم في وجهها بعد أن أصابعها الفزع، فما زالت صغيرة: لا يا بنتي مفيش حاجة، اطلعي بس.

-حاضر يا حاج، بس هخرج نص ساعة وأطلع لها، خجلت من قول السبب الحقيقي.

-لكنه شجعها على الصعود فورًا وألا تبالي بأي شيء، وحين رآها صعدت إلى الأعلى، هبط هو لمقابلة عمر.

....

خرج ريان من المنزل تاركًا والديه، يساوره الشك حول سبب رفض والده لزواجه من ريم، ثم ابتدأ بربط الكلام بينه، وبين ما دار بين والديه، فباغتته فكرة هل والده كان يعرف والدتها قبل ذلك؟ لماذا كان الحديث يخص والدتها فقط ولم يذكران أي فرد آخر، ظل يسير مشيًا على قدميه حتى وقف أعلى ربوة عالية تطل على القرية كاملة، وعلى السرايا، استنشق الهواء العليل وبدأ برسم الأمل مرة أخرى، شاهدها بسيارتها تخرج من باب السرايا، يبدو أنها في طريقها إلى القاهرة، كم تمنى لو كان بإمكانه أن يرافقها بسفرها وبكل مكان تخطو إليه، أو يكون له الحق حتى بالتحدث إليها ولو هاتفيًا للاطمئنان عليها، تمنى الكثير ولم يحدث شيئًا، والآن لا يملك سوى الدعاء الخفي والتضرع إلى الله بأن يجمع بينهما عاجلًا، فسولت إليه نفسه التحدث إليها عبر الماسنجر، أو ربما يجب عليّ إخبار حسام أولًا! تخبط كامل يحيط به من جميع الاتجاهات ولا يدري ما العمل.

-خرجت حياة من غرفتها وهي تود الحديث إلى حمزة الذي يجلس بردهة السرايا، لقد أصبح لا يعير وجودها أي اهتمام، ما زال يجلس قابعًا يمعن النظر في كتاب لم تتبين اسمه، فتنحنحت لإجلاء صوتها: حمزة!

ولكنه لم يرد عليها ولم يجبها فكررت النداء باسمه، ولكنه اكتفى برفع بصره نحوها دون أن يتفوه، تحدثت بقوة وكأنها تخبره، وليست تأخذ إذنه كما تعودت، وكأنها قد نسيت ما حدث بالأمس: أنا هروح لبابا الأول

الأرض وأقعد معاه، وبعدين هروح لماما وأتغدى معاهم النهاردة، هتيجي معايا؟

هز رأسه بالموافقة دون أن ينطق.

-اعتراها غضبٌ شديد وصرخت فيه: حمزة مينفعش كده، رد عليّ اتكلم هو حصل إيه لدا كله.

-أغلق الكتاب، ووقف أمامها وخبط على أرنبة أنفها: صوتك ميعلاش يا حياة! وبالمناسبة، مفيش خروج من السرايا، وتوجه للخروج من الباب الكبير.

-هتفت بصوتٍ عالٍ: حمزة!

-توقف والتفت إليها: اتعلمي تتكلمي مع زوجك، يا زوجتي العزيزة بهدوء، دي الزوجة اللي عارفة واجباتها، وليها حق تطالب بحقوقها! وخرج وأغلق الباب من خلفه وتركها تقف والصمت يجتاح جوانبها من شدة الصدمة وكأنها قد تصلبت.

-وجدت ريهام أمامها مباشرة: ليه يا حياة، هو ده اللي اتفقنا عليه؟ في إيه؟

-انهمرت دموعها وتزايدت تلقائيًا: مش متحملة إنه ميردش عليا، ولا يكلمني، ليه فجأة اتغير؟

-دي نتيجة الضغط، لازم تهدي شوية، اطلعي ارتاحي دلوقت وربنا هيسهل.

الفصل الحادي عشر

الحب هو ذكاء المسافة، ألّا تقترب كثيرًا فتُلغى اللهفة وتصطدم بواقع مؤلم يمزق مشاعرك، ولا تبتعد طويلًا فتُنسى ويطوى دورك.

ألّا تضع حطبك دفعةً واحدةً في موقد من تُحب، أن تُبقيه مشتعلًا بتحريكك الحطب ليس أكثر، دون أن يلمح الآخر يدك المحرّكة لمشاعره ومسار قدره، الحب أن تقتسم كل شيء من فرح، وحزن، وقوة، وضعف"

خرج عمر بصحبة الحاج منصور، وسارا على الأقدام لفترة، تردد الحاج منصور في إخباره بمقابلة ليال على السلم.

أما عن عمر كل دقيقة تمر ينظر فيها إلى الهاتف، حتى سأله الحاج منصور: مالك يا عمر؟ أنت مستني حاجة؟

-تنهد عمر مخرجًا طاقة هائلة من صدره: مفيش يا حاج عندي موضوع كده شاغلني، معلش أستأذنك هعمل تليفون.

-ابتسم الرجل بدهاء: ليال مخرجتش من البيت أنا شفتها وبعتها عند الحاجة، لا مؤاخذة في السؤال يا ابني أنت تعرفها منين؟

-دي حكاية طويلة أوي يا حاج، وأنا توسمت فيك خير، تسمح لينا الظروف وأحكيهالك وبالمرة آخد رأيك لأن احتار دليلي فيها.

-وماله يا ابني بس نخلص مشوارنا الأول، ما هو كل شيء مهم فيه أهم منه، ولقمة العيش مش سهل تلاقيها.

-تردد عمر في السؤال بعض الوقت لكن فضوله كان أقوى فقال: هو احنا رايحين فين يا حاج؟

-أشار منصور إلى عمارة سكنية، فنظر عمر لها: الشغلانة الجديدة يا عمر، وإيدي في إيدك ومعانا أبو أحمد شريكي، نخلصها بسرعة عشان فيه واحدة تانية وأهو بالمرة نشوف شغلك.

فرح عمر كثيرًا ودعا للحج منصور بالخير، وتذكر دعوة والدته عندما ودع القرية "ربنا يجعل لك في كل خطوة سلام ورفيق وأخ شقيق"

-قطع حبال أفكاره صوت الحاج منصور وهو يقول: دي العمارة اللي كلمتك عنها، يلا اضبط شغلك علشان عندنا شغل كتير.

-لم يصدق عينيه لما يرى من عمل كثير، ورزق وفير، فحمد الله كثيرًا وبدأ بالعمل.

....

في داخل منزل ريان

وقفت الحاجة سمية والدة ريان أمام والده، وقالت بهدوء لا يناسب المقام: أنا عارفة كل حاجة، محدش حكى لي، الموضوع كله أنه إحساس مراودني من سنين، واسمها اتذكر قدامي من حوالي ١٥ سنة، ووالدتك الله يرحمها كانت عايشة.

أنا عارفة إنه كان موضوع قديم وانتهى يا أبو ريان، وعارفة اللي جواك، بس هحملك أمانة وغلاوة ابنك والسنين اللي عشتها معايا، متزعلوش وخاصة البنت عايزاه، الولاد ملهمش ذنب.

-لم يتعجب كثيرًا من صراحتها، دومًا كانت منذ زواجهما تسانده وإلى جواره، في أوقات ضعفه وفقره.

أتقنت هذه السيدة تربية ابنها ومعاملة زوجها على أكمل وجه، أحبته وأجبرته على حبها بل وعشقها، تسللت إلى قلبه بحنانها وعفتها حتى صارت جزءًا من قلبه.

-ابتسم بعشق لم يبح به أبدًا ولم يخرج من طيات صدره: أمه أغلى منه.

-لم تفهم ما يقصد فأكمل بصدق بدا جليًا في وجهه: هوافق عشان أمه، يمكن اتجوزتها ومكنتش بحبها، بس والله وبعد العمر ده كله بموت في التراب اللي بتمشي عليه، صانت ابني وعرضي، وحفظت عيشي وملحي، ولما حست إن كان في حاجة قديمة خبيتها عنها متكلمتش، وخلت المركب تمشي، يا أم ريان لو كنت رافض مش عشان الكلام القديم بس، لا أنا خايف على ابني يدوق من نفس الكأس، محمود أخويا كان معايا من يومين وبيتكلم عن حياة وحمزة ومش مبسوطين سوا، أنا المفروض محكيش ليكِ حاجة أنت بالذات، والله ده خوفي على مشاعرك، وعلى ابني الوحيد، وعلى العموم يا ستي أنا موافق، ربنا يسعدهم.

غامت عيناها بالدموع وأطلقت عدة زغاريد حضر ريان على إثرها متلهفًا وقلبه ينبض بالشوق والحب واللهفة، شعور لا يوصف، فقط رأى دموع الفرح في عينيّ والدته، فاحتضنها بود وقبل رأسها، وأسرع نحو والده يقبل رأسه ويديه واشتعل قلبه فرحًا، لم يرد لقلبه الحزن كثيرًا.

ترك والديه ليخلو بنفسه وحيدًا، ويطلب من حسام طلبًا من صميم قلبه، طلب يمثل له بشكل أو بآخر كل شيء، طلب أكثر من حياة أو موت.

....

داخل السرايا

ينظر شريف لها بنظرات مبهمة لا تدري كنهها، اختلفت ملامحها عن ذي قبل، ربما صغرت، توردت وجنتاها، ومن الواضح أن زال غضبها من نفسها، بهت غرورها، تحطم كبرياءها، فأصبحت أكثر إشراقًا، قرر أن يتحدث بمكر ودهاء إلى ريهام بعد أن تستمع إلى كلامهما مع حياة ليطمئن قلبه أنها تغيرت، وأنه ما زال يعشقها، فقال بثبات: ناوية على إيه يا ريهام هانم؟

-بنظرة حب وتسليم: كل خير يا حبيبي.

كانت كلمة حبيبي بصوت شجي محبب حرك قلب شريف، وهاجت مشاعره بعد سنوات من الخمود، حاول الهرب منها لكنه لم يفلح.

أجبرته سطوة العشق على التسليم، "إذ لا يفلح المحب في إخفاء مشاعره، تفضحه عيناه مهما فعل"

اقتربت منه ريهام تضبط من وضع ربطة عنقه، وتنظر في عينيه بحب: شريف عايزة أنسى ٣٥ سنة جواز وأبدأ من النهار ده، بروح جديدة وحياة غير اللي فاتت، اديني فرصة أصلح عجرفتي وغروري، أنا خاضعة لك ولأولادنا، فأنا من دونكم لا شيء.

-تمالك نفسه قليلًا: مينفعش ننسى كل حاجة على طول، في ندوب بتتحفر جوانا مع الوقت وتراكمات زي ما خدت وقت علشان تتبني، لازم تاخد وقت علشان تتفتت وتتنسي، لكن القلوب معلهاش سلطان، ومطّ شفتيه بهدوء: لكن هحاول أنسى وأساعدك تتغيري للأحسن، يمكن حياتنا تبقى أحسن.

-ريهام بعينين دامعتين: أوعدك دايمًا هبقى أحسن وأحسن يا شريف، وهطمن واطمنك على ولادنا، وأنت هتساعدني، وهتشوف النتيجة بنفسك.

-نظر شريف بأمل بدأ يملأ قلبه: ازاي؟

-نساعد حياة وحمزة الأول.

-رد عليها: دي أهم حاجة دلوقتي، على فكرة حسام كلمني إن ريان عايز يخطب ريم.

-ربما كان الأمر مفاجئًا لها بعض الشيء، ولكنها حاولت السيطرة على نفسها فابتسمت، لو كان هذا الأمر قبل معاهدة السلام التي أجرتها مع الجميع لحولت السرايا إلى جحيم، لكنها قالت: هنشوف رأيها واللي فيه الخير يقدمه ربنا.

هحاول أكون أم بمعنى الكلمة واقعد معاها شوية.

....

"في غرفة ريم"

-عادت من الخارج، ألقت نظرة على حسابه الخاص، لم تجد منه كلمات جديدة مما ينشرها على صفحته لكنها تدرك أنها لها خاصة، حزنت، تود أن ترى كلماته فلقد اعتادت منه على ذلك.

حاولت أن تطمئن قلبها ولكن ما من جديد، ما زالت تتصفح بعناية، وما زال القلق يمزق فؤادها.

-فتحت صفحتها الإلكترونية وكتبت "وضعتُ قصاصات صغيرة منذ زمن داخل صندوق وردي، يحوي ذلك الصندوق أحلامي وأمنياتي، وإلى اليوم لم أسحب منه أهم حلم أود أن يتحقق، ولكن لا أدري لما في الصباح سحبت منه ورقة بمحض الصدفة من بين الورقات، وجدتها مدون بها "إلى الأبد" ألن ينتهي ذلك الأبد؟"

ثم ضغطت على كلمة نشر، وجلست والانتظار لا يرحم.

-لم تمر دقائق إلا وقرأها ريان

فتح صفحته وكتب هو الآخر

" لا أنا قد الفرحة دية، وحلاوة الفرحة دية، خايف لفي يوم وليلة، مالاقكش بين إيديا.

تروح وتغيب، تغيب عليّ يا حبيبي.. يا حبيبي.
قلت لي يا حبيبي ساعتها، دي دنيتي أنت اللي مليتها"
ودون أسفلها سينتهي الأبد، حتمًا سينتهي.
ونشر كلماته، ورفع هاتفه وطلب من حسام محادثة ريم لأمر خاص وسؤال يجب أن يسمع إجابته بنفسه.

....

وقفت حياة في غرفتها حائرة تقطعها بخطوات متثاقلة في توتر ملحوظ حتى أتاها اتصال هاتفي من والداها:
_ عاملة إيه يا حياة؟
-أجابته بصوت يكسوه الحزن وغلبه الحنين إلى حضن والديها: الحمد لله بخير يا بابا متقلقش عليّ.
-إيه يا بنتي مش هتيجي تشوفينا؟
-هاجي يا بابا إن شاء الله قريب، لو أقدر هعملها وآجي حالًا، والله محتاجة آجي أوي يا بابا.
-دخل حمزة واستمع لكلماتها وشعر بعمق جرحها الذي تخفيه، ود حينها لو يحتضنها مختطفًا حزنها وإزالته، لكن مازال هناك الكثير.
جلس قليلًا حتى أنهت مكالمتها وجلس على الفراش صامتًا.

لم يمر وقت طويل وخرج حمزة وجد نفسه قاب قوسين أو أدنى من التخلي ونقض عهده لنفسه وترويض حياة، وأن يذهب إليها يراضيها.

"فقط ذلك الخافق اللعين هو من يفعل بنا ذلك، يجعلنا نهدم ما ننوي بناءه"

حزنت حياة عندما أغلق الباب خلفه، وزاد ندمها ونهرها لنفسها، وبدأت بجزء من سخط أسلوب حمزة وتعنفه.

كانت تود أن تطلب منه زيارة أهلها بأدب ولكن لا شيء.

....

"في شقة الحاج منصور"

-ما زالت ليال بتحفظ مضرج بالقلق رغم محاولات الحاجة "ثريا" بسحب الحديث منها وبث الطمأنينة في نفسها بالحديث عن بناتها الثلاث، وزوجها منصور لكن دون جدوى، فمن اعتاد الخوف ظن كل الطرق الآمنة كمناء.

حديث لم ينتهِ ولا يتوقف عن الثرثرة عليها تخرج ما بجعبتها، لكن الأخرى تنظر للهاتف بشغف، تنتظر مكالمة عمر، في لحظة تنهر نفسها لتفكيرها.

-رن هاتف الحاجة "ثريا"

وبعد دقائق من حديثها الملم للمتصل، والذي لم يشغل بال ليال مطلقًا، حضرت قائلة:

الحاج منصور بيسلم عليكِ وبيقول لك خليكِ معايا أنا والبنات النهار ده، هو وعمر عندهم شغل ومش راجعين دلوقتي، هيباتوا بره.

-ساورتها الراحة قليلًا واطمأن قلبها، لكن لماذا لم يهاتفها عمر ويطمن وعليها؟ هل ملَّ منها؟

ألم يعد يرغب بوجودها؟

في خضم تفكيرها الذي لم ينتهِ مطلقًا منذ الصباح، رن هاتفها، فزِعت وأجابت دون تردد.

منذ أن بدأ بالعمل ويتمنى أن يهاتفها، لا يدري ما أصابه!

سمع الكثير ما يشعل صدره ويفتك بقلبه، ولكنه على وعده سيظل محتضنها.

وكالعادة تغلّب القلب على العقل مرغمًا، ضغط زر الهاتف للاتصال، فتحت ليال دون حديث: الو ليال، ليال.

كرر النداء باسمها، ولكن أجابته دموعها الصامتة، وتنهدات بكائها.

-طمنيني عليكم، "شهد" عاملة إيه.

-أجابت بكسرة وخوف: هتسيبنا يا عمر؟

-سؤال مباغت لم يكن يتوقعه ولكنه رد بسرعة: عمري يا ليال، أنتم أمانة ولازم أطمن عليكِ وأرجعك لأهلك.

-سألته بنبرات حزن: مش هتسيبنا عشان الأمانة بس؟!

"يود القلب قول الكثير وفعل الأكثر، ولكن في بعض الأحيان يكون القول والفعل محالان.

-تنهد بصوت مسموع: سيبي كل حاجة على الله، أنا في شغل وربك يحلها لما يخلص.

-أردفت ليال بصوت فاقد الأمل يغلب عليه الحزن والخوف: ربنا معاك.

-أجابها بثبات مصطنع: خلي بالك من نفسك ومن شهد، بوسيلي شهد عشان وحشتني.

-ابتسمت بدموع لا نهاية لها: حاضر، وأغلقت الهاتف وازداد البكاء.

****

الفصل الثاني عشر

"لهفة البدايات ليست حبًا، إذ لا يُحب الإنسان بأسبوع أو شهر، لا يُمكنك أن تُحب البحر وأنت تقف على الشاطئ، يجب أن تغُوص في أعماقه، تضْرِبُك أمواجُه المتلاطمة، وترى قاعه المُظلم، فتَلْمس عُيُوبه، وتعْرف كيفَ يغضب، وبعدها فقط إما أن تُحبه كله أو تكرهه كله، يبدأ الحب عنْدمَا ينتهي الحَماس".

"**داخل مكتب حور الجديد**"

-ما زالت تتعلم المشاكسة من سيفها وحسام قلبها، تحاول ربما مرة أن تنجح في الانتصار عليه والتقدم بخطوة، فنظرت نحو مكتبها الجديد بنصف عين زائغة: المكتب مش أوي، عادي يعني، بكرة أنا أغير الديكور بتاعه واعمل أحسن منه.

-ابتسم لمكرها الواضح في عينها بقوة، هو يعلم أنها تكابر برأيها كنوع من الدلال الأنثوي، فرد عليها: لما أنتِ تنوريه هيكون أحلى من مليون ديكور يا قلبي وأنا أقف لك حارس عليه.

-مدت يديها نحو عنقه: أخنقك ولا أعمل فيك إيه بس؟

-مال بعنقه نحو أذنها هامسًا: وأكون شهيدك موافق ده أنا أتمنى وأدخل جنتك.

-صرخت فيه بمزاح: اديني فرصة أغلبك مرة.

-ضحك وهو يهز رأسه بالنفي: وأخسر مرة أستمتع بأنك غضبانة أو فرحانة، يا متمردة بوضعك الجديد.

-رن هاتفه بجيبه فأخرجه وأجاب دون تردد، استغلت حور الفرصة وبدأت برسم صورة له والتركيز يغلب عليه.

أتقنت الرسم بشدة ولكنها وضعت له شاربًا ووضعت سكينًا فوق رقبته، ووقفت عاقدة ذراعيها أمام الصورة، انتهى من هاتفه وضحك ملء فيه بصوتٍ عالٍ: مقدرتيش على الحقيقة، قلت تقومي بالواجب في الصورة.

-ردت بغضب طفولي زاد من جمالها: يارب أقدر بس مش بالسكين، بالكلام وبس وتذكرت الهاتف فسألت: صح مين كان بيكلمك؟

-رد عليها وهو يتصنع اللامبالاة: واحدة ست.

-اقتربت نحوه بحدة قالت: ده كده السكينة هتتكلم وتقول هي.

-تحدث رافعًا يديه باستسلام: خلاص راجل بهزر يا عم.

-ببعض الحدة قالت: مين هو أنق؟

-بابتسامة مكر: مش لازم تعرفي عن رجالة، هحكيلك عن ستات وبس.

-شمرت عن ساعديها واستعدت للخناق: مكتوبة لك الخناقة وهتعلم فيك كل حاجة، ضرب وكلام وكله.

-احتواها بين ذراعيه مقبلًا جبهتها، انخرطت بداخله، وبدا حبها رغمًا عنها، فنظر لها وسمعته يهمس في أذنيها: وأنا موافق.

بعدها خرجا من المكتب وهي تتأبط ذراعيه والسعادة تغمر قلبها في اتجاه السرايا.

....

داخل غرفة ريم

بعد أن قامت بتغيير ملابسها، واكتسبت شيئًا من الراحة وشعرت بالهدوء يجتاح أوصالها، وبينما هي جالسة ومستغرقة في أفكارها، قاطعها صوت رنين هاتفها ينبئ عن وصول رسالة، وحين قامت بفتحتها لتقرأ محتواها، سقط قلبها صريعًا بين قدميها، فقد كان ريان هو المرسل:

-أخدت إذن من أخوكي علشان أكلمك، اسمحيلي هكلمك ومن فضلك ردي على اتصالي، ولو حابة تتأكدي من أخوكي الأول قبل ما تردي عليا هيأكدلك كلامي!.

أصابتها الحيرة كثيرًا من أمرها، ولم تعد تدري ما يتوجب عليها أن تفعله، ولكنها أخيرًا قررت أن تتحدث إلى أخيها أولًا، وتتأكد من صحة كلام ريان:

-هو ريان كلمك وأخد منك إذن إنه يكلمني؟

-أيوا، ردي عليه!

لم يمر سوى خمس دقائق، وأخذ هاتفها يدق، وقامت بالرد عليه واللهفة تملأ قلبها وحمرة الخجل تكسو ملامح وجهها، كما لو أنه يقف أمامها ويرى كل منهما الآخر:

-السلام عليكم ورحمة الله، عاملة إيه يا ريم؟

-اكتفت برد التحية عليه، وأنها بخير وفي أحسن حال، وعادت للصمت مرة أخرى.

-فباغتها بسؤاله المفاجئ إليها: موافقة نتجوز، ونعيش هنا؟ حبيت أسمع منك الإجابة، قبل ما أجي بكرة.

-حاولت أن تكون شجاعة قدر الإمكان وتجيب سؤاله بطريقة تبعث الطمأنينة إلى قلبه: هتعرف الرد من حسام إن شاء الله، مع السلامة يا دكتور، وأنهت المكالمة ودقات قلبها كطبول الحرب، وتتساءل هل أحب حديثها وصوتها وتُرى كيف كان وقعهما عليه.

أما عنه، فهو لا يختلف عنها في شيءٍ، لقد كان سعيد للغاية والفرحة تملأ قلبه، لأنه سمع صوتها، وأقسم بينه وبين نفسه ألا يجعلها حزينة يومًا، أو يتسبب في تغيير نبرة صوتها المحبب إلى قلبه، والسعادة التي كانت واضحة عليه، إنها غزالته الصغيرة وابنة قلبه، وحبيبة عمره وحياته.

غرفة حياة وحمزة بعد الثامنة مساءً

دخل حمزة وألقى عليها السلام، ردت بصوت مليء بالحزن والشجن، نبرة الحزن تلك التي مزقته من الداخل وشعر بحزن كبير من أجلها، فطلب منها أن تقوم بارتداء ملابسها، وأنها ستذهب لزيارة والديها، وأخبرها أنه سينتظرها في الأسفل، كان نبرته صوته بمثابة أوامر يمليها عليها، فهزت رأسها بالإيجاب، وترك الغرفة وخرج مسرعًا من الغرفة، فامتثلت لأوامر دون أن تنبث ببنت شفة، ولا تدري ما الذي أصابها، ولكن هناك شيئًا ما قد تغير بها.

وحين خرج هو من الغرفة، وهبط الدرج وجد والديه في الردهة وهما يتناقشان بشأن ريان وأهله، سأله والده:

-هتروحوا؟

-فاكتفى بهز هز رأسه إيجابًا.

-شكرًا أنك تفهمت يا ابني، مرة بالشدة، وأخرى باللين، ربنا يصلح ما بينكم.

خرج من باب السرايا في انتظارها، وتذكر مكالمة والده، وطلبه منه أن يأخذها إلى والديها، ربما يطمئن قلبها، أولًا وأخيرًا فهو أب ولديه ابنة، كان وقتها جالس أمام الترعة يصطاد، لقد أرد أن يمارس هواية الصيد حتى يتسنى له الهرب من الجلوس برفقتها، لقد أصبح يفكر فيها أكثر من ذي قبل، إنه يحبها للغاية، وارتباطه بها هو ارتباطًا روحيًا، عشق أبدي، لا يستطيع كسرها، وإلا سيكون بمثابة كسر نفسه وروحه قبلها، طيلة ستة

أشهر وهو يجهز لها منزلها الخاص في أقصى الأراضي بالقرية، وبمساعدة كلًا من حور وحسام، ودون علمها، وسيفاجئها عن به عما قريب...

وقاطع أفكاره ظهورها، لقد خرجت ووقفت أمامه، انتهى الحديث بينهما، دلفت إلى السيارة لتجلس بالمقعد المجاور له، فلأول مرة منذ أن عرفها، يراها ترتدي الجلباب الأسود، حزن كثيرًا لأجلها وأقسم ألا يراها حزينة أبدًا.

....

في موقع العمل

أنهى عمر اتصاله وشرد قليلًا، وأطال النظر إلى الهاتف طويلًا، فوضع الحاج منصور يده على كتف عمر، فأخرجه من شروده، والتفت إليه ليجده ينظر إليه والابتسامة تعلو شفتيه:

-تعالى نرتاح شوية، وناكل لقمة، وندردش شوية.

-ماشي.

جلسا سويًا وبدأ في تناول الطعام واستغرقا في حديثٍ طويل، سرد فيه عليه عمر كافة التفاصيل كاملة، ماعدا ما يسيء إلى ليال أو يجرحها.

-ياه يا ابني، كل دا حصل! وهتعمل إيه؟

-شور عليا إنت، أنا مش عارف أعمل إيه.

-بص يا ابني الرجالة مواقف، وإنت راجل وسيد الرجالة كمان، إنت بتقول إن أخوها صاحبك، ومتعلم يعني مخه كبير وبيفهم وهيقدر، اتكلم معاه

وروح قابله، واحكي معاه، وهو اللي هيساعدك ويقف معاك، وهي هتفضل أمانة في بيتي ووسط أولادي، وإنت بكرة بإذن الله تروح تقابل أخوها، كل تأخير زيادة هيعيبك إنت، وربنا قادر على كل شيء، ويارب يصلحلكم الحال، كلمها يا بني بعلم أهلها، وإنت بتقول إنك مش هترجعها، وهتتجوزها.

-بدت السعادة على ملامحه ونبرة الحب تملأ صوته: دا اللي ناوي أعمله والله، بس خايف يعملوا فيها حاجة.

-متخافش، إن شاء الله مفيش حاجة هتحصل، دي إرادة ربنا إنكم تتقابلوا، وكل حاجة ترجع لأصلها.

....

في منزل والد حياة

دخلت حياة، فانقبض قلب والدها لرويتها هكذا ذابلة، عيناها تخفي الكثير من الحزن، ويظهر مكانها شعيرات حمراء من كثرة البكاء، احتضنها والدها واستقرت بحضنه لبعض الوقت، إلى حين سحبتها والدتها نحوها، واحتضنتها هي الأخرى بشدة، رغم زواجها إلا أنها ما تزال ابنتها البكر، وأول ما رأت قلوبهم قبل أعينهم جميعًا، استأذن حمزة في الرحيل لأمرٍ هام، ولم يستطع أحدهما التفوه معه بكلمة واحدة.

دخلت حياة وجلست في منتصف المقعد بين والديها، مالت على كتف والدها، وقامت والدتها لإحضار بعض الشراب إليهما، ودون سابق إنذار أو

ترتيب، بدأت بالفضفضة لوالدها، عما حدث الفترة طوال السابقة، ولم تنس خطأها بحق حمزة، واستمع والدها بعناية لكل ما قصته عليه، وحاولت ألا تنسى كلمة واحدة، ولكن قلب والدها كاد يتآكل حين رأى دموعها وحزنها، وحينما انتهت من سردها صمتت لبعض الوقت وهي تتنفس بصعوبة بالغة بعد أن أفرغت كل ما في جوفها:

-كوني له أمة، يكن لك عبدًا، فاكرة وصية "إمامة بنت الحارث" لابنتها وإنك اعترضتي عليها لما قريتيها إنك تكوني أمة، ولما بقيتي أميرة ونفذتي كلامك، وصوتك أعلى منه هو بقى إيه؟ جوزك أحسن راجل في الدنيا، أنا مش بلومك يا بنتي ولا بعنفك، أنا غلطت لما خليت الأرض قوت قلبك، ونسيت إنك بنت جميلة، وأنا بقولك إن ربنا خلق الست من ضلع أعوج؛ لتستقيم بالراجل، يكملها وتكمله، خدي جوزك في حضنك يا بنتي، الأيام اللي بتروح مش بترجع تاني، وإنتم في عز شبابكم، وقدموا لبعض الحلو، هتلاقوا الحلو.

شعرت حياة بالراحة كثيرًا، واطمأنت بحديث والدها، وفرقت معها كثيرًا هذه الزيارة وقررت أن تصلح كل شيء قد كُسر.

....

في السرايا

حضر ريان بصحبة والديه، وعمه وزوجته؛ لطلب ريم للزواج من والدها وأخويها، استقبلهما حسام أولًا، ثم جاء حمزة بعده بقليل، وفي جو أسري

سعيد تسوده الابتسامة، والسعادة واضحة على الجميع، يبتسم العريس ابتسامة عريضة، والتي زاد اتساعها عند دخول العروس "ريم"، فاتنة وجميلة في هدوئها، ترتدي فستانًا جعلها كالغزالة الصغيرة حقًا، ألقت التحية وسلمت على الجميع يدًا بيدً عدا ريان، جلست بالقرب من والدته، فى هذه الليلة السعيدة، وقاما بالاتفاق على كل شيءٍ في سلاسة، وقاموا بتحديد موعد الزفاف، واتفقوا أن يكون في خلال أشهر وليس أكثر، ثم قاموا بقراءة الفاتحة، وطلب شريف من ريان أن يُلَّبس الشبكة للعروس، فقام وألبسها خاتمها، وأصبح الآن إصبعها يحمل ويضم اسمه، المنقوش على جانبي الخاتم:

-مبروك يا أحلى عروسة في الدنيا.

شعرت بالخجل كثيرًا ولم تستطع الرد عليه واكتفت بابتسامة جميلة يملؤها الخجل.

-فاقترب منها قليلًا ومال إلى أذنها هامسًا: بيننا كلام كتير جدًا جدًا، هيبقى ليا الحق أخيرًا أقوله وأحكي معاكي كل اللي في قلبي من أكثر من خمستاشر سنة.

-نفسي بجد أسمعه.

ابتسم واعتدل في جلسته حتى لا يتلمز عنه حسام، فهو يعرفه حق المعرفة، وقف الجميع يقبلون بعضهم البعض بفرح وسعادة داخلية، ولكن أكثر ما أثار دهشة الجميع وتعجبوا منه ألا وهو فرحة ريهام الواضحة، ولكن لم

يتحدث أبدًا أيًا منهم، فكل منهم يسعى إلى طلب الراحة والفرحة، ولكن حياة ما زالت حزينة، وحور غلب عليها الحزن لأختها، اقترب حمزة منهما، واستأذن لجذب انتباه حياة له والتحدث معها:

-ممكن تنسي أي حاجة، وتفرحي شوية، نفسي أشوف ابتسامتك، أو على الأقل عشان خاطر ريم، وريان، بلاش عشان خاطري.

حاولت جاهدة أن تبتسم لكنها لم تنجح في ذلك، فما يؤلم القلب لا يمكن تناسيه حتى لو لحظة تمثيل، وفي تلك اللحظة تأكد حمزة أن الهدية التي يجهزها لها، هي ما ستأخذها من حزنها، وحضر حسام وأخذ حور ليتحدث إليها، ظلا يتسابقان ببعض عبارات الحب بينهما، حتى تحدث حمزة قائلًا:

-نقدر نروح البيت إمتى؟

-أجابه حسام وهو يمزح معه: ابقى استأذن الأول وإنت جاي يا دكتور، مش كده!

شعرت حور بالخجل وأدارت وجهها، فأردف يقول والضيق يبدو عليه، لم يكن في حال يسمح له بالمزاح:

-اخلص يا حسام

-إيه يا عم، كل حاجة جاهزة في الوقت اللي تحبه.

التفت ليغادر المكان ويتركهما بعد أن اطمأن لكلام حسام.

الفصل الثالث عشر والأخير

"أولئك الذين يحبون شعاعها الذهبي، ويعشقون انعكاس قمرها، ينتظرون رحيلها ليضيء عتمة ليلهم بنجوم لامعة، يهتدون بها في محراب عشقهم، فالصب هوى لنجمة لمعت في سمائه، وأرضه، ظلا يدوران في فلكٍ، متتابعان، مترابطان لا ينفصلان".

....

وقف الحاج منصور ثابتًا أمام مصطفى والد ليال ليحاول تهدئته ويسيطر على الغضب الجاثم في قلبه:

-غلطت وندمت، واتبهدلت كمان، ادبحها بالسكينة، وبالمرة بنتها كمان، هي غلطت مقولناش حاجة، بس ربنا بيسامح، وبيغفر، والحمد لله مش هتخسر لها حاجة، بنتك هتتجوز والراجل ده محبش يغلطها مرتين، النهاردة بيقولك أنا مش عايز غير موافقتك ولو مش عايز تشوفها خالص براحتك.

-ضحك مصطفى بتهكم والجرح يدمي قلبه: أنا مليش بنات، بنتي ماتت من زمان، وموافقتي زي عدمها، ملهاش لزمة أصلًا!

-تدخل أخوها صابر في الحديث بهدوء موجهًا كلامه إلى أبيه:

يا بابا عمر عمل الصح، هو حكى لي على كل حاجة، وإنه عايزها بالحلال، وهو قابل باللي فات وراضي بنصيبه.

- والحزن يقطر من بين كلماته:

هيتعاير بيها العمر كله زينا، ولما يتعب هيسيبها، وأهله مش هيسيبوها في حالها!

-هنا تحدث عمر عنها ولم يستطع السكوت أكثر: كلمتي عهد قدامكم دلوقت، أنا قابل، ولو اشتكت يوم مني، أو جاتلك في يوم حزينة بسببي ادبحني أنا، يا عم مصطفى أنا متربي معاكم، وإنت عارفني.

-يا بني ما أنا كنت مربيها، وعملت كده!

-تحدث الحاج منصور بقوة وبحدة بالغة: ربنا رايد ده يحصل، غيّره لو كنت عايز أو تقدر.

وبعد جدال طويل وعذاب، انتهى بموافقة "مصطفى"، ولكنه اشترط على عمر أن تخرج له عروسًا من منزل والدها، وفي تلك اللحظة دخلت "ليال" مسرعة وألقت بنفسها أمام والدها، وانحنت لتقبل يده، ولكنه لم يلق لها بالًا ولم ينظر إليها، فانحت تحت قدميه لتقبلهما وتطلب منه العفو والغفران، وما زال ثابتًا لا يتحرك وكأنه لا يراها، لكن الدموع تأكل عينيه حتى تخرج للنور، لم يتمكن أكثر من المقاومة وفاضت من عينيه، عند رؤية حفيدته أمام عينيه، لم يحتضن والدتها، وإنما احتضنها هي، وصدق من قال أنّ: "أعز من الولد ولد الولد".

-ما زال الوقت باكرًا للسماح يا ليال، جملة قالتها والدتها والحزن يعتصر قلبها!

-هبت مسرعة وقامت واحتضتنت والدتها التي كانت تحترق شوقًا لاحتضانها، ولكنها كانت تبعدها عنها، وبالأخير رق قلبها لها، ولم تستطع أن تمنع نفسها أكثر.

-فقام والدها بخبط عصاه بالأرض بقوة وكأن زلزال يهتز من تحت أقدامهم، فانتبه الجميع له: شهد هتنستنى معايا هنا، تعالى بكرة خد عروستك بعد ما نكتب الكتاب.

....

دخل حمزة الغرفة وجدها تحتضن رأسها بين ركبتيها، تناكس رأسها خجلًا منه لطالما كانت الأقوى، لكن ماذا جنت من تلك القوة؟ "إن الحب إذا أوقعك في فخاخه صرت أسيرًا لمن تحب، تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه وتتنفس حبه، ومع ذلك أنت سعيد، لذا فالمحب أحيانًا يكون أحمق!"

الآن اعترفت بخطئها كاملًا، رفعت رأسها اليه وبنبرة تخالطها الأسف: لو نطقتها يا حمزة مش هلومك، طلاقي ده نهايتي، للأسف فهمت كل حاجة بس متأخر.

تنهد بصوت مسموع وأخرج زفيرًا عاليًا، لكنه ما زال صامتًا، يحاول إخراج ما يجيش به صدره ولكن لا فائدة، هيئتها عصفت بكيانه، انكمشت

قسوته المزعومة وذابت وتحولت إلى عصير حنان، ود لو يحتضنها ويخبئها داخل صدره، ما زالت حياة "حياة حمزة".

في لحظة ما ودون توقع غلب القلب العقل، مد يده محتضنا كفها وجذبها حتى وقفت أمامه، رفع وجهها إليه وقال بصوت جليدي:

ـ عشر دقايق وتكوني جاهزة هنخرج.

وخرج صافعًا الباب خلفه ولم يمهلها فرصة لطرح أي سؤال، لذلك لا جواب.

....

قبل انتهاء الوقت كانت هندمت ملابسها ولفت حجابها كاملًا، ألقت نظرة بائسة إلى المرآة وجدت عينيها تملؤهما خيوط حمراء، لا داعي للحزن إذًا، يكفي ما بها، لقد رآها بأكثر من هذا سوءًا.

خرجت إليه، حزن لرؤيتها، لا يريدها حياة الضعيفة، الهشة، المنكسرة، المنطفئة، لكن الحزن يفعل كل هذا وأكثر، بل يريد الأخرى القوية الشامخة ولكن مهلًا سيدتي كان عليكِ أن تتعلمي أن هناك للحب فنون مثل فنون الحرب، وأنني لست ضعيفًا لكنّي قوي بكِ، وجودك إلى جواري زادني قوة، واليوم سأثبت لكِ أنني الزوج المناسب لكِ والحبيب العاشق.

طال صمت حمزة، مدت يدها برفق لتخرجه من صمته.

ـ انتبه إليها؛ ابتسم وشبك يدها بيده وقال بهدوء ومرح: من غير أي سؤال، لا رايحين فين ولا جايين إمتى ولا أي كلمة، مفهوم يا حياة!

-كان يتوقع منها الموافقة دون عناد خاصة بعد فترة الخصام التي عصفت بقلبه قبل قلبها، لكنها حياة إن لم تتمرد ويعلو صوتها لن تكون حياة فقالت بضيق:

ـ يعني ساحبني وراك من غير حتى ما أعرف ليه، ولا رايحة فين!

-هز رأسه علامة على أنها لا فائدة منها، في الوقت ذاته لا ينكر فرحته أنها ما زالت أبية قوية، ولكنه كشر بوجهها، فخفضت من صوتها وسكتت عن الكلام.

-خرجا من السرايا؛ استقلا سيارته، ملامح وجهها تنم عن كثير من الكلام مما يجعله مبتسمًا لإثارة غضبها، سارت السيارة حوالي خمسة عشر دقيقة حتى خرجا من البلدة تمامًا وأصبحا وسط الأراضي الزراعية.

انتبهت إلى الطريق فلمحت منزلًا قريبًا، توقف حمزة أمامه ونزل من السيارة، وفتح الباب من ناحيتها وقال بحنان: انزلي يا حياة.

وقفت أمام المنزل تنظر في دهشة وذهول، لاح لمخيلتها أنها أخبرت حمزة ذات مرة عن جمال هذا المنزل وما يميزه كونه بعيدًا عن الناس، وأنها كم تود مكانًا مثله، بل تحلم بامتلاك مثله ذات يوم، حيث البساطة والهدوء.

-رآها صامتة فأدرك ما تفكر به وما ينتهك حرمات عقلها بلا هوادة وأنه بمساعدة حور وحسام أوصلا هذا المكان إلى ما تريده حياة وتتمناه، سمع صوتها المضرج بالفرحة واللهفة والذي أخرجه من ذكرياته: دي رسمة

حور، كنت بشوفها برسمها وتصميمها من فترة، يعني كلهم كانوا عارفين وأنا لا.

-ضحك حمزة قائلًا: قبل ما تدخلي برجلك اليمين سيبي النكد بره وادخلي أنتِ، انسي مين عارف ومين لا؟ فكري في المفاجأة وبس.

-أجابته بعتاب هادئ وبهجة: عشان كده كنت دايمًا مختفي الفترة اللي فاتت!

-رد مشاكسًا: لا كنت بصطاد سمك، مش وقته يا حياة.

دخلت من البوابة الرئيسية عندما أمسك بيدها وأغمض عينيها وقادها نحو الداخل، ما إن أزاح يده عن عينيها قائلًا بدلال: فتحي عنيكِ يا ست البنات.

-فتحت عينيها فشاهدت نسخة مصغرة من السرايا، قطعة من الأناقة على هيئة منزل، الفرق أن هناك حمام سباحة، لمعت الفرحة بعينيها، جذبها مقتربًا منها: مش ده كل اللي كان نفسك فيه، بيتك وحمام السباحة المتغطي، وشوفي هناك كمان اللي بتحلمي به.

-صرخت بصوت مرتفع: كوخ!

-قهقه عاليًا: اصرخي براحتك هنا مفيش حد يسمعنا ولا يقول صوتها عالي يا مجنونتي، ويلا بسرعة بقى على ما أجهز هنا اطلعي فوق هتلاقي لبس البسيه.

-مر وقت ليس بالكثير انتهى حمزة من تجهيزات المسبح بالإضاءة الخافتة وأشعل النار على جنباته فانعكس ضوءها على مياهه فازداد المكان جمالًا ورونقًا، والموسيقى الهادئة تبعث بالاسترخاء.

-هبطت حياة ملكة ترتدي فستانًا أسودَ لامعًا بشريط يضم خصرها، وحذاء سندريلا الفضي وتاجًا مرصعًا بالألماس فوق شعرها الأسود المتطاير على كتفيها يتلاعب به الهواء يمنة ويسرة، رغم أنها تمتلك بشرة خمرية إلا أنها ملكة كأنما شربت من أجمل بقعة في الأرض، وأخذت منها أجمل قطعة.

-عقد حمزة ذراعيه، ورفع حاجبيه دهشة من فتنتها، قد تكون امرأة عادية، لكنه كان يراها حياته، وكأنه أغلق عينيه وقلبه إلا منها.

استقبلها بين ذراعيه مودعًا إياها قبلة فوق جبينها بثها حبًا وشوقًا غير معهود.

تجذبه برائحتها الزكية، وبأنفاسها البريئة، وروحها الطاهرة الحنونة.

شعر بأنينها الصامت وهو يهمس في أذنها: افتكري إننا سيبنا النكد بره يا حياة، دي صفحة جديدة عاوزينها تكون حلو وبس، نسيب كل اللي فات ونفكر ازاي نسعد نفسنا.

-قبلت يده: آسفة يا حمزة على كل اللي عملته أنا عارفة إنك استحملت كتير، حقك علي و....

-لم يمهلها لتكمل الحديث وأوصد فمها بيده: انسي أي حاجة النهار ده، أنا عايز أعيش ليلة من ألف ليلة وليلة تعرفيها!

من أول مولاي العزيز "شهريار"

لحد وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح!

-ابتسمت واحمرَ خداها خجلًا، وامتثلت للأمر ووقفت رافعة يدها: أمر مولاي.

-رد عليها بحب اجتاحه: مولاتي تسمح لي بالرقصة دي!

رقصا سويًا على "وبين إيديك أنا بنسى روحي

بين إيديك أنا بنسى روحي"

وقضيا ليلة كاملة، مليئة بالسعادة بين الرقص والمرح والسباحة والجلوس أمام النار للتدفئة، ولأول مرة كانت تتزمل بعناقه وتتشبث به.

حقًا كانت ليلة ساحرة، تعد من أولى لياليهم السعيدة سويًا.

....

في منزل مصطفى

-قال المأذون جملته الشهيرة: "بالرفاء والبنين"

احتضن عمر يد ليال وخرجا من المنزل بعد وداع أهلها حتى وصل إلى الشقة في منزل الحاج منصور كما اتفقا.

دخلا الشقة وأغلق الباب خلفهما.

وقفت أمامه بلباس عرسها ولم يحرك ساكنًا.

اليوم ليال عروسه بعد حلم طويل لسنوات، وقف في ذهول لا يدري ماذا يقول! وكأن الكلام تاه منه، لم يسلك طريقًا إليه، وجدها تنحني إلى الأسفل، ركعت لتقبل قدميه، فأسرع ليوقفها ويربت على رأسها وكتفيها: مفيش كلمة شكر ممكن توفي اللي عملته معايا، وقفت جنبي وصنتني ورجعتني لأهلي ودي كانت الحاجة اللي بتمناها، أنا هفضل مديونة لك طول عمري.

-نظر لها وهاله جمالها الذي لم يره من قبل: كنت طول عمري بحلم باليوم اللي يجمعنا سوا وأشوفك عروستي.

-تنهدت قائلة: هو أنت ليه رفضت تتجوزني قبل ما أرجع لأهلي الأول؟

-تنفس بهدوء: عشان مخنش الأمانة والعهد.

ضمت حاجبيها بعدم فهم، فتابع قائلًا: وابقى فرقت أيه عن اللي قبلي؟ ابقى سرقتكم، واستغليت موقفك أنت وبنتك، ومعملتش بالجيرة، أنت غالية أوي يا ليال ومقامك كبير أنت بس اللي مش عارفة قيمة نفسك، مينفعش غير تكوني في مكانة عالية وأهلك لازم يفرحوا بيكِ، ولو غلطتِ مرة

مينفعش أعاقبك بالسيف كلنا بنغلط، وأهم حاجة تكوني مبسوطة إنك رجعتِ لأهلك.

قبلت رأسه وضمته بين ذراعيها ممسكة برقبته وكأنها حبل النجاة: مبسوطة دي كلمة شوية يا عمر، يا أجمل راجل شفته في حياتي، واختبأت داخل أحضانه أكثر، فعلمت في ذلك الوقت أنها في أيد أمينة، وأن الله كتب لها فرحتها، ولكن في أوانها.

....

بعد مرور ستة أشهر

"من السعادة تارة والحزن تارة هكذا الدنيا"

-أشرقت شمس الصباح، وشدت "أم كلثوم" أعذب الألحان بإذاعة الشرق الأوسط في السابعة صباحًا.

"يا صباح الخير يا اللي معانا
الكروان غنى وصحانا
يا صباح الخير يا اللي معانا
الكروان غنى وصحانا"

تحركت ريهام بأرجاء السرايا في سعادة، هذه المرة سيدة السرايا الأولى اسمًا ومكانة تليق بها، ولكن عكس كل المرات السابقة التي وطئت فيها أرض هذه البلدة والسرايا خاصة.

اليوم الجمعة كالعادة يجتمع لديها ابناها حمزة وحسام، وزوجاتهما حياة وحور، وابنتها ريم وزوجها ريان.

وكم تنتظر غداء الجمعة لتراهم ملتفين حولها في حب وألفة، واعترفت أنه بصلاحها أولًا صلح أبنائها وتيسرت حياتهم، وسعد شريف لرؤيتها هكذا.

اليوم له ذكرى حفية، مر عام كامل على زواج الأبناء واحتفل به بوجود العائلة كاملة، أهل حياة وأهل ريان أيضًا، تغيرت الحياة وأصبحت ذات

معنى عندما تآلفت القلوب واقتنع كل فرد أنه بحاجة لغيره، وأنه لا يتم الترابط إلا بإكمال بعضهم بعضًا.

حضر الأبناء والعائلة كاملة في جو يسوده المودة والرحمة، تبادلت الزيارات والهدايا، وأصبحت ريهام تحب الجميع وأحبها الجميع لحنانها الذي كان مخفيًا.

وكانت هناك مفاجأة سارة من الجميع أنه بعد مرور سبعة أشهر أخرى سيصبحون أجدادًا.

أصبح الجميع بغاية السرور وقيد الانتظار لتلك الفرحة التي تزيدهم غبطة وسعادة.

****

تمت بحمد اللّه

رواية

مقبرة الحب

وفاء الغرباوي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
1443 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com